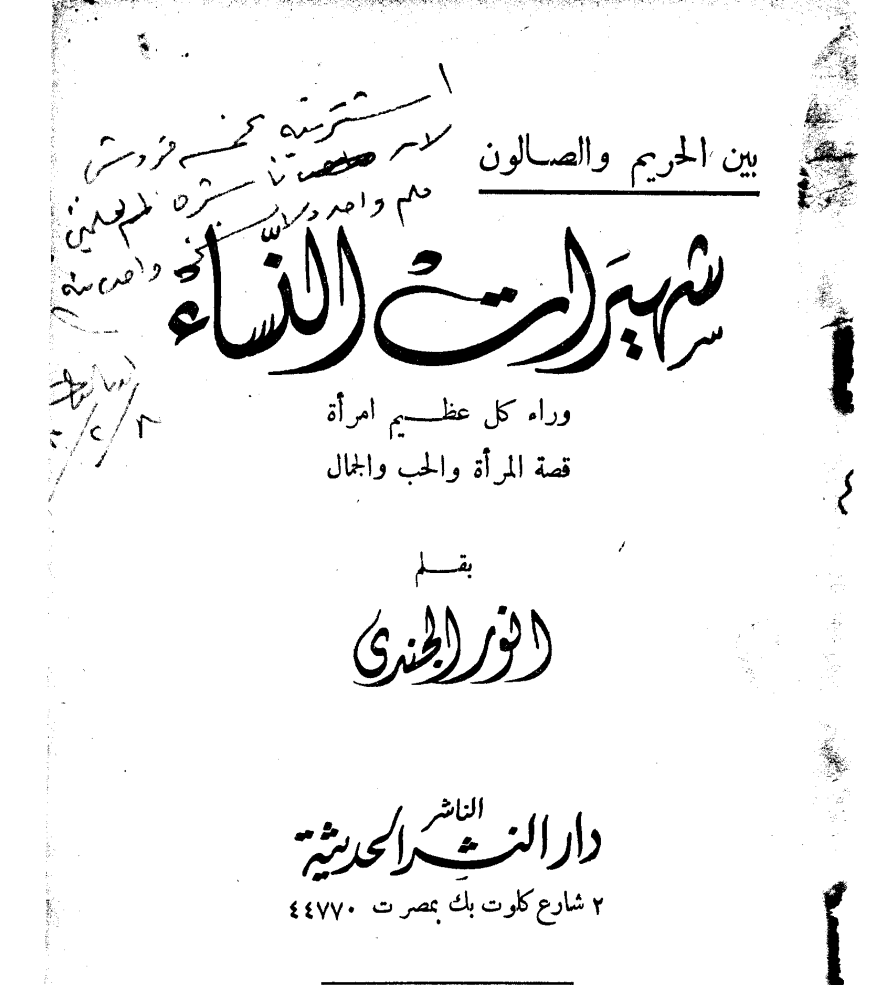


بين الحريم والصالون

شهيرات النساء

وراء كل عظيم امرأة

قصة المرأة والحب والجمال

بقلم

أنور الجندي

الناشر
دار النشر الحديثة
٢ شارع كلوت بك بمصر ت ٤٤٧٧٠

مطابع
الناشر العربي

مؤلفات أنور الجندى

العنوان	السنة
اخرجو من بلادنا	١٩٤٦
نساء خالدات « تراجم »	
أعلام الإسلام « تراجم »	١٩٥٤
الحياة العالية « تراجم »	١٩٥٥
شهيرات النساء	١٩٥٨
صلوات حب	
الفكر والمجتمع	
نزعات التجديد فى الأدب	١٩٥٧
أضواء على حياة الأدباء « تراجم »	١٩٥٥
صفحات من أمجادنا	١٩٥٧
جمال عبد الناصر والثورة	١٩٥٥
الأعلام الألف « تراجم »	١٩٥٧
بلا أمل « قصه »	١٩٥٧
أضواء على الحياة والأدب	١٩٥٧
مصابيح على الطريق	
أضواء على الإسلام	
على عتبة الأربعين	
جولات فى الأدب والحياة	١٩٥٥
الإسلام والاستعمار	
جمال عبد الناصر وكفاح الشعب	١٩٥٦

أنور الجندى



- أصدر حتى الآن ٤٠ مؤلفا فى الأدب والتاريخ والتراجم والسياسة والإسلام .
- اشتغل بالصحافة الأدبية منذ عام ١٩٣٥ فى جريدة الوادى ومجلة أبولو وعمل بالصحافة عام ١٩٤٦ .
- أثار كتابه « أخرجوا من بلادنا » ضجة كبرى عام ١٩٤٧ قدم بسببه للمحاكمة والاعتقال .
- ألف أول كتاب ترجمة لحياة الرئيس جمال عبد الناصر .
- لم يكتب إلا قصة واحدة هى « قصة بلا أمل » .
- يعمل محرراً فى جريدة « الجمهورية » ويكتب فصولا أدبيـــة فى جميع المجلات العربية .
- كتب أول دراسة عن الأدب العربى المعاصر فى نصف قرن .
- عرف بنصف عاموده «جولات» بتوقيع «عطارد» فى الزمان والجمهورية
- أصدر مجلتى « عطارد » و « أضواء » الأدبيتين
- حارب الملكية والحزبية والاستعمار فى أبان سطوتهم وجرد قلمه للدفاع عن القومية العربية والإسلام .

نصر عبيد

مدير دار النشر الحديثة

إليك : أيها الروح المحب الفنان .

يا من وهبت روحى من نورك ضياءاً دفعنى أن أبحث عن قصص الحب فى حياة كل فنان عظيم .

يا من جعلتنى اؤمن بأن وراء كل فنان امرأة لأننى عرفت أثرك فى أدبى وفنى .

إن حبك قد دفعنى أن أبحث عن الحب فى الأدب فأنا قد أعددت بفضل عاطفتك الحلوة المشرقة كتابا آخر غير هذا الذى أقدمه اليوم عن «صلوات الحب» التى صاغها أهل الأدب والفكر قصيداً و نثراً و نغماً فى حبيباتهم أرجو أن أقدمه للقراء فى أقرب فرصة .

إليك يا من فتحت أمام قلبى أبواب الهناء الروحى والعقلى . . أقدم لك صوراً من حب المحبين .

وسلام الحب عليك كلما أشرق النور أو طلع البدر

« أنور »

غادة الكاميليا : ديماس

نشأت فى الطفولة المظلمة. وزلت فى سن الخامسة عشرة . ومزقت سن المراهقة بالنزوات. وصاحبت الغجر وسافرت معهم وتعلمت قراءة الكف والتسول والسرقة . . ودخلت باريس وحيدة تحت جنح الظلام فى الأسمال البالية والحذاء الغليظ . ومضت تضرب فى الأزقة على غير هدى . . يكاد يقتلها الجوع . وتفتح شباب القروية الساذجة على أضواء باريس المحرقة . واشتغلت غسالة وخياطة وبائعة عطور . ثم بدأت ترقى فى الحياة عن طريق الشر والجسد والهوى . فأصبحت من بنات الهوى . وعرفها الشباب وتقلبت فى الأيدى .

واندفعت مارى بلسى فى حياتها العاصفة . وسرعان ما لمعت فى سماء الصالونات الباريسية وعرفها عظماء باريس وكبار رجالها . . ولكن الداء لاحقها فنغص عليها حياتها وأفسد متاعها. وارتفعت مارى بلسى الخادمة القروية من الحضيض إلى مقام الأميرات . وكلما رأت الداء يدب فى صدرها زاد جنونها فى الاندفاع وراء اللذة . وعاشرت عشرات من النبلاء والعظماء الذين غسلوا أقدامها بالذهب وأفاضوا عليها النضار ولكن الحب لا يعرف هذه المعانى كلها . فما أن التقت به : اسكندر دوماس الفتى الأديب والشاب الفقير حتى أحبته . ولأول مرة عرفت الحب ... كانت تسخر من أصحاب القصور والذهب . وتضحك من عواطفهم

نحوها . . ولكنها هذه المرة أحبت صادقة . وضحت بكل شيء فى سبيل هذا الحب .

وأحبها دوماس من أول نظرة . .

أخفت مارى بادىء الأمر صلتها بالشاب عن الكونت الغنى الذى ينفق عليها . ومضيا يتلاقيان فى خفاء وحذر .. ولكن لم تلبث عاطفتها أن اجتاحت كل شيء . وصغر فى نظرها وتقديرها هذا النضار .. وقذفت بكل شيء غير مبالية بما يلقاها من بعد أن تنقطع عنها الموارد . . وهى تعيش مع حبيب فقير . .

وغمرها الحب . وأرضت دوماس بالتضحية .

وكان الموقف قاسياً فمن أين له أن ينفق عليها لتعيش فى الجو الذى ألفته ، لكن الذى كان يشغلها .. شيء واحد .. هل تدوم هذه العاطفة . كانت تخاف من الغد . وتخشى ما يخبئه لها المستقبل .

وكتب دوماس فى مذكراته « كنت فى حلم . نعم كنت فى حلم . وكان يصعب على أن أصدق ما أنا فيه . وأن أثق من تلك الحقيقة الملموسة الناطقة . أنا سعيد .. ».

وكان ديماس فقيراً لا يملك شيئاً . يقامر فى المنتديات الليلية ليتمكن من الانفاق عليها . ويقدم لها زهور الكاميليا التى تحبها .

وكان دوماس يعرف أنها تحب الكونت الغنى لماله . وكان هذا يفرى قلبه ويأكل صدره حقداً وعزة ، فلما فاتحته فى أن تعتزل هذه الحياة وتتزوجه ، أجفل وتراجع وتردد .. لقد كان حبها له أكبر من حبه

لها .. وتعقدت الأمور فى وجه ديماس ، لا هو قادر على الصرف عليها ولا هو قادر على احتمال الحياة التى تحياها .. ووجدها عائدة ذات مساء بصحبة رجل لا يعرفه فكتب لها: «لست غنيا إلى الحد الذى يجعلنى قادراً على أن أحبك كما أريد ، ولا فقيرا بحيث أحبك كما تريدين فلننسى إذن . . الوداع » .

وغاب عن أفق حياتها ، وتركها لحياتها .. وحزنت مارى قليلا ثم اندفعت فى نفس التيار وأحبت غيره ، وتعددت متاعبها وآثامها ، ثم زاد الداء فانصرف عنها الناس وبدأت تتحطم . كانت تخرج بعربتها لتجتاز شوارع باريس بمفردها ، وكان الناس يشيرون إليها ويتساءلون هل لا تزال مارى بلسى حية ...

وكانت تقول فى أيامها الأخيرة : « لقد بحثت عن خل بلا إرادة ، وحبيب بلا ريبة ، ومحبوب بلا حقوق فلم أجد إلى ذلك سبيلا . فالرجال بدلا من الرضا بما كانوا لا يحلمون به مرة واحدة . يسألون خليلتهم أن تؤدى لهم حسابا عن الحاضر وعن الماضى بل وعن المستقبل .. » .

وكتب لها ديماس .. وعاد .. ليراها ويصفها فى هذه اللوحة الأليمة « إن بشرتها الناصعة المثلى قد ذابت كما يذوب الثلج بنار الحمى ، وكان اللهب الخابى يلعب بألسنته الضامرة على خديها الذابلتين . وقد خبت عيناها النجلاوان وزادتا عمقا وجعلتا شيئاً فشيئاً تنطفئان .. لم تعد امرأة . بل ظل امرأة . شيء أبيض شفاف . عظم وثوب » .

ولما ماتت لم يسر وراء نعشها غير بضعة أشخاص ..

أى عبرة . هذه التى كان يترامى الكثيرون عند قدمها عند ما كانت

فى أوج مجدها . وجمالها ، وجلالها ، هذه التى انصرف عنها الناس عندما دخلت فى مرحلة الموت . ولم يعد يتردد عليها غير الدائنين .. فقد كانت مدينة بعشرين ألف فرنك .

وعاد ديماس وكتب قصيدته الأخيرة :

« وجدت حجرتك الهادئة المظلمة . والذكرى فيها باقية قوية مقدسة !

وشعاع من النور يضىء السرير النائم فى الظلام .

ولكنك أنت لست فى السرير المضاء » .

دانتى – بياتريس

لعل شاعراً من الشعراء لم يخلد حبيبته . بمثل ماخلدها دانتى فقد جعلها بطلة للكوميديا الإلهيه التى تعد من أضخم الملاحم الشعرية الرائعة . وكان دانتى قد التقى بها باكراً فى سن الشباب وأحبها حباً نبيلا . لم يعد تبادل السلام والتحيه . ولكن الحب امتد وزاده الحرمان قوة ولهيبا واضطراما فى نفس الشاعر المتفتح . فاندفع يقول الشعر و يغرد وقدالتهب إحساسه فابدع فى الفن .

ولكن الأمر مضى على غير مايريد الشاعر الفنان وكأنما أراد الحرمان أن يكون قوام نفسه ومادة أدبه فتزوجت بياتريس. وهنا تحول هيامه بها إلى لون عجيب من التصوف العميق. فيه الطهارة وفيه الإشراق وفيه ذلك التسامى على الماديات والتطلع إلى حب نفس لاسبيل إلى لقائها أو المتاع بها.

ولم يلبث القدر أن أوغل فى حرمانه . وأن يزيد الشاعر لهيباً . ويعطى شعره تلك الرنه الحزينة فماتت بياتريس وهو فى معترك الأحداث السياسية يدفن آلامه فى ذلك الصراع الطويل فى معترك الأحداث .

لعل شاعراً لم يعش على حب امرأة لم تكن صلته بها إلا لقاء باكراً فى أول الشباب كما فعل دانتى . الذى زاده الموت اتقاداً ونقاء وصفاء نفس وزيادة فى الانحناء على الذكرى والوقوف إلى جوار الإنسانه التى لم يعرف قلبه سواها فى حياته كلها .

لقد تزوج دانتى ظانا أن زواجه قد يحقق أمله فى السعادة أو يخفف لوعته ولكن النتائج جاءت عكس ذلك تماما . فقد أحال الزواج حياته سلسلة من المتاعب النفسيه والآلام مما زاده انغماسا فى المعترك السياسى مكتفيا بأن يعيش على الذكرى . ذكرى المرأة الأولى ..

وتقلبت به أحوال السياسة فأصبح حاكم فلورنسا ثم نفى خارجها . وعاش على أحزان الحب الضائع والنفى والحرمان فى مختلف صوره فأندفع يسجل عاطفته فى صـــورة بلغت من الروعة منتهاها . إذ صنع الكوميديا الألهيه وجعل بياتريس هى لبابها . وهى النور المنبعث منها .

فقد صور كيف التقى ببياتريس فى الآخرة وقد جاءت فى موكب رائع تحف بها الملائكة ينشدون ويرتلون وينثرون الورد والعطر . ثم مضى يطوف بموكب الخلود وقصـــور الخلد فى الجنة وهى إلى جواره تبتسم فرحة مشرقة . وظلا يسيران فى موكب الخلود صاعدين إلى كل مكان ثم يمران فوق الكواكب السبعه .

وبعد أن تنتهى الجولة تنفصل بياتريس عن الشاعر وتحتل عرشها العظيم وهكذا وجد دانتى فى قصته الطويله مجالا للتنفيس عن نفسه والكشف عن المعانى التى طالما احتبست وراء الحقائق فلم تمكن منها الحياة فأحالها إلى هـــذا اللون الرائع من الأدب والشعر والقصص ليخفف عن نفسه كظومها الخفية المرهقة .

ولقد عاش دانتى حياته كلها لهذا الحب . كان يتراءى له من خلال أحداث الحياة . من خلال المجد والملك والسياسة والنفى . لايغيب طيفها عنه لحظة واحدة . . وقد جعله الحرمان يتصورها كأنما هى قديسة فوق المطامع والأهواء والرغبات . . وأمتزج حبه با لعبادة فكبرت فى خاطره عن أن تكون إمرأة ..

جورج ساند : موسيه وشوبان

لم تكن بارعة الجمال : ولكنها كانت من ذلك النوع الظامىء الذى لا يرتوى ، الذى يستنزف صاحبه حتى يدعه ركاما .. ثم يتركه ليبحث عن حبيب جديد وشوبان وموسيه كلاهما من ضحاياها . . وقد وصفها « بلزاك » بأنها امرأة غازية تتصف بصفات الرجل العارف فلا أنظر إليها كامرأة ، ولم يعرف تاريخ الحب امرأة مثلها ولن يعرف .

وقال « فرانز ليست » أنها تقبض على الرجل كمن يقبض على فراشة فتداعبها وتسكب فى فمها الرحيق وتجنى لها الأزهار ثم لا تلبث أن تنشب فيها أظفارها وتقص جناحها لدى أول مقاومة .

وقد وصفت نفسها بقولها : لو ألبسونى ثياب الغلمان لكنت غلاماً حسنا أكثر منى فتاة جميلة ..عاشت جورج تحب بقوة ونهم وعاطفة جامحة بعد أن شقيت بزوجها الأول الذى عاشت معه حياة معذبة مضطربة لم يهدأ لها فيها بال .

كان زوجها لا يبالى بها ولا يشعر بما تنطوى عليه نفسها من حرارة ووقدة . فأنفق لياليه وأيامه فى الإدمان فهجرت هذه الحياة باحثة عن الحب ... تريد أن تعوض بعنف . فلقيت جورج ساند الذى تسمت باسمه فأحبته بعنف . ثم فترت شعلة حبها . . واستحال هذا الحب إلى كراهية شديدة . ومضت تبسط جناحها لتجد الحبيب الذى تغتاله . .

وعرف كل من أحبها أنها شخصية قوية مسيطرة .. وقد أخذت فى ذلك الوقت تنشر أدبها . وجعلت من هؤلاء الذين أحبتهم أبطالا لقصصها .

وقد قالت عن نفسها أن الحب غذائها اليومى فلا تستطيع أن تعيش ساعة واحدة من غير حب . ولكن أى حب هو . أنه عاطفة جياشة قوامها الروح والجسد . وفيها ذلك العنف الذى حطم شباب موسيه ثم حطم شباب شوبان .

وعندما التقت بجورج ساند كانت فى الثالثة والعشرين من عمرها . متقدة شرسة كالجمر . وادعة حنون كاللبن خصبة جواد كالأرض خطرة غدارة كالبحر ، وقد أحبته بعنف . وكتبت جورج ساند فى مذكراتها تقول : « لقد أحببت هذه المرة من كل قلبى . ستردد الأجيال اسمينا معا . كما رددت تلك الأسماء الخالدة : روميو وجوليت وهلويز وابيلارد وسوف يكون اسم الشاعر مقروناً دائماً باسمى كمخلوق واحد . »

وكان الداء قد استولى على الفريد ، ولما أحس بالألم توسل إليها أن ترحم شبابه الغض . واتفقا على الفراق .. ولما دعى الطبيب لعلاجه أحبت جورج الطبيب وأوقدت فى صدره العاطفة ، واخذت تمضى معه الليالى تاركة موسيه يتلوى على فراش الألم .

... ولكن نفسها الملولة دفعتها مرة أخرى إلى أن تدع الطبيب وتعود إلى موسيه ، بعد أن هجرته .. ومضت تكتب له القصائد الدافقة بالعاطفة وارفقت إحدى الرسائل بخصلة من شعرها عربون التوبة والوفاء .. وتناسى موسيه وعاد الحب يشق طريقه مرة أخرى إلى قلبيهما جياشاً ، ونظم موسيه روائع شعره ، وكانت قصيدته الخالدة « ليلة مايو » تمجيداً

لحب جورج ساند ، ولكن عاطفتهما لم تلبث أن فترت . . واتفقا على الفراق ، وكان الداء قد أعيا الشاعر لكثرة ماأدمن من الخمر التى كانت تنسيه آلامه . وضايقه الحديث عن المستقبل والمال .

وخلفته فى مرضه وآلامه . . ومضت تبحث عن حب جديد

وكان فى هذه المرة موسيقى مريض . . هو الآخر ، إنه شوبان .

إلتقت به فى سويسرا . وكان فى أوج مجده ، يصغرها بست سنوات وكان قد ترك بلاده بولندا محطم القلب ، كسير الفؤاد ، إثر صدمة حب عنيفة . وقد سافر إلى فرنسا يلتمس الصحة والراحة والسلوى .

وأحبته جورج ساند كأنها كانت ظامئة إلى حب عاصف . . أو كأنها كانت تنتقم لشبابها . وحاول أن يبتعد عن طريقها ، ويهرب من شراكها . فقد كان يبغضها ويراها المرأة المسترجلة التى قضت حياتها بين أحضان العاشقين ، ولكنه ما كاد يراها مرة بعد أخرى حتى أحس بالحب . ثم استأثرت به . وملكت عليه شعوره . وكان حباً جنونياً عاصفاً . وامتزجا . . هو يستمع إلى قصائدها وهى تستمع إلى ألحانه .

وبالرغم من الشباب الغض . كان السل قد بدأ يزحف إلى صدره ويهد قواه . . حتى قال لها ليلة وهما فى ذروة النشوة : «إننى أحبك ياجورج وأعبدك وأقدس إسمك ، ولكننى مريض فارحمى شبابى . . »

فقالت له : « لا تخف يا حبيبى. سأظل إلى قربك وأسهر على صحتك »

ولم تدعه جورج . ولم ترحمه . فقد حملته معها إلى جزيرة البليار ، حيث الشمس والصحة ، وحيث حبها النارى فقد مضيا يتبادلان

العاطفة الجامحة .. إلى أن فسدت صحة شوبان . وبدا الدم الذى تقذفه رئتاه يصبغ منديله الأبيض .

وكانت تكتب إليـــه عندما تغيب عنه : « لم أعد أحبك ولـكنى أعبدك ولم أعد أريدك ولـكنى لا أستطيع أن استغنى عنك» .

ومضت جورج تتفـــانى فى السهر على المريض وتقوم على خدمته وتحنو عليه حنو الأم . وكانت الأنثى تستفق فى أعماقها فتنقم عليه . وكان هو يرى فى شـــبابها القوى الغيرة والغضب والشكوك ... وما كان أحوجه إلى العطف منه إلى الحب فقد كان يخطو إلى الموت بخطى بطيئة ...

ولقد وصفته ساند فى أيامه الأخيرة فقالت : « عندما كنت أعود إلى البيت من نزهة فى خرائب الجزيرة . كنت أدخل عليه فأجده ساهراً يعزف على البيانو ، وقد شحب وجهه وغارت عيناه ، وتطاير شعره وارتجفت يداه وهو يضرب بأنامله النحيلة ، ويعزف دون أن يقوى على التطلع إلى قبل مضى بضع دقائق على وصولى » .

ثم عادا من رحلتهما إلى باريس حيث سكن كل منهما بمفرده وعكفت هى فى دارها حيث انصرفت إلى الـكتابة والعناية بولديها .

وعادت جورج مرة أخرى إلى الملل ، ومضت تبحث عن مغامرات جديدة . فقد كانت تنظر إلى الحب على أنه عاطفة وإحساس ولذة فى آن واحد . فى حين كان الحب فى نظر شوبان ليس إلا عاطفة فقط . وكان هذا مصدر صراعهما . كانت تريد أن تعيش بالعاطفة والجسد وأن تتمتع بكل ما يمكن أن تتوافر فى الحياة من ملذات .

وقد انقطع شوبان عن التأليف بعد أن هجرته ساند . ومضى ألم الجرح الدامى الذى تركته ينزف فى قلبه حتى مات .

أما هى فإن الشيخوخة لم تذهب بسحرها ، بل تركت فى وجهها وأحاديثها شيئا من الجمال الذى جعلها أكثر جاذبية وأروع مظهرها . لقد كانت جورج ساند قلب وعاطفة مندفعة لا تتوقف وكان اسمها الحقيقى « أدور دويان » .

بتهوفن — جيلنيا

هذا الموسـيقار الذى هز الدنيا ومضت مواكب الفن فى عوالمها تتطلع إليه فى اعجاب واجلال ... كم عاش شقيا ومات مدينا حزينا .. وقد حرم كل شىء حتى الحب . أدمت أصابعه الموسيقى فكان يضحك الدنيا ويملأها بالبهجة والمرح فى نفس الوقت الذى كان قلبه يتقطع فيه حرماناً وشقاء وألماً .

هناك فى مطلع الشباب فى قرية « نروب » القريبة من كولونيا حيث الطبيعة تتماوج حبا وضحكا ومرحا .. عاش بتهوفن تملأ عينيه صور الجمال وتجرى فى أذنيه أنغام الموسيقى . . وهناك وجد الحب ، كانت فتاة أجنبية حلوة . رائعة الملامح . دقيقة التقطيع . كانا يقضيان النهار معاً متجولين فى المروج المخضله . ويمضيان الليل جالسين على جانب المعزف . هو يعزف وهى تلاحقه بنظراتها ودقات قلبها ولكن تلك السعادة لم تطل . فقد تطلع بتهوفن إلى فينا عاصمة الإمبراطورية . فلما وصل إليها أرهق نفسه وشغلته مطامحه عن صحته . فأدى ذلك إلى إصابة أذنيه ..

وفيما كان يصعد ويرتقى إلى مدارج الخلود الشهره . ويتلهف عليه الناس ، ويلمع إسمه . كان سمعه يثقل حتى يكاد يفقد حاسته ... فأخذ ينقبض عن الناس ويتحاشاهم ويملأ ذلك نفسه بالوحشة والقلق .. ويتصل هذا باعصابه فيؤذيها ...

وأخذ ينظر إلى المستقبل فى يأس وتوجس . وكأنما قدكره الناس لما حرم من الاضطراب فى مجتمعهم وانحنى على فنه يعمل ويعمل . ويدفن أحزانه فى الأنغام .

وفى هذه الأيام المريرة كان يصور أحزانه فى خطاباته إلى صديقه فيجلو فيقول « إنى أكابد عيشة تعسة . ظللت عامين طويلين أجتنب الناس لأنى صرت عاجزاً عن محادثتهم . أنى أصم . ولو كانت لى مهنة لهان الخطب . ولكن موقفى اليوم موقف عصيب . فما الذى يقوله أعدائى عن صممى . وليس عدد أعدائى بقليل .

قضى على أن أعيش حزينا بعيداً عن كل ما أحب وأعز . والدنيا التى أعيش فيها على ماهى عليه من الخسة والأنانية . ليس لى إلا أن التجىء إلى راحة الخضوع الصامت والاستكانة . وكم حاولت أن أتعالى واستهين بآلامى . ولكن أنى لى الوصول إلى ذلك المطمع .. .. »

وكتب إليه مرة أخرى يقول : « لقد أرغمتنى العلة الدائمة على أن أعيش فى عزلة . فقد استحييت أن أبدو فى المجتمع . وأتحدث إلى الناس . فلا أرى بدا من أن أطلب اليهم أن يرفعوا أصواتهم حتى أسمع لأننى أصم وليت شعرى هل كان فى استطاعتى أن اعترف أمامهم بعاهة فى الحاسة نفسها . التى كانت أولى بأن تكون عندى أقوى وأكمل .. »

وهكذا غلب على روحه القلق والاضطراب . وذهبت الرؤى الحزينة اليائسة تطارده . كأن به ثأراً قديما يريد أن يشفى غليله منه . وكأنما هو موكل به . يتعقبه فى كل مكان ..

***

وجاءت « جيلنيا » .. لتتاق عليه الموسيقى . إنها فتاة صغيرة لعوب . فأحبها . كان قلبه العاطش مشوقا إلى الحب . كانت فى الخامسة عشر من عمرها . فتفتحت نفسه للفتنة النسويه . وكان شبابه فى سن الثلاثين يكاد ينطوى على كهولة .. ويشرف على رماد الحرمان ..

ولما تمكن الحب منه قال أنه يعيش فى موسيقى مستمرة . كان حبها إلهاماً .. ومضى فيض الأنغام يتدفق على الفنان العبقرى . وأعطته الفتنة النسوية زاد فنه .

ومن أعماق حبه لها وضع سوناتات ضوء القمر وأهداها إليها وكتب لصديقه يقول « إنى أجد للحياة بهجة وطلاوة لاعهد لى بها . صرت أكثر الناس ائتلافا بالناس . ولم يتحقق هذا التبدل إلا بأثر فتاة تحبنى واحبها . إنى أمتع نفسى بلحظات غبطة لم أنعم بمثلها من سنين .. »

كانت جيلنيا مرحة لعوبا . خدعت الفنان عندما رأته ينصرف إليها بكليته . ويكاشفها بعاطفته .. ولكنها كانت لا تستطيع أن تقدر عاطفة الفنان فلم تنظر إلى حبه بعين التقدير .. ولم تبادله الحب . كان سنها لا يسمح لها بأن تسبر غور روحه ولا مدى عاطفته . وكانت تنظر إلى المال . وكان بتهوفن لا يملك ثروة .. إلا ألحانه فانصرفت إلى حب ضابط أغراها بالنضار . فاتقدت العاطفة القوية فى نفس بتهوفن ..

.. ومضى يستعطفها . ويكتب إليها ..

« ياملاكى وروحى وأمنية حياتى . لماذا هذا الحزن والأسى واللهفة المستعرة فى نفس واحناء عاطفتى ألا يقتضى الحب التضحية ليبقى . ويستوجب إنكار الذات ليدوم !

انظرى إلى جمال الدنيا! أليس الحب هو الذى يبقى عليه. وهو العنصر الأوحد الذى يكبره ويتفانى فيه . وهل خلق الجمال الا ليكون الحب بجانبه وعلى حواشيه ..

الحب يطلب التفانى . وله الحق فيما يطلب . وإذا تفانيت أنا فيك فلا عجب . أنت كنزى الأوحد . ومدخرى . فلندع جنبا منه يرعاه لأنه هو الهمنا اياه .

ياأعز انسانة على قلبى . أتراك فى وحشة من غيابى . ولكن الحب يلغى الزمان ويمحو المكان . وحيث أكون تكونين . فنحن حاضران وإن غبنا . متلاقيان وإن افترقنا . متحدان وإن تفرقنا . ولولا هذا الوصال الروحى لما احتملت الحياة .

أنا وانت فى هـذا الكون حبيبان . ولئن كنا قريبين على البعد . متلاقيين على الغياب . فإن حبنا صرح ممدود. ذاهب فى السماء ثابت كثبات القبة الزرقاء . مترامى الأنحاء كالفضاء :

خواطرى أن أقمت فى موضعى منطلقة إليك وحدك حيث تقيمين . بهيجـة حينا وحينا محزونة ، ولـكنها لك كلها فى مختلف صورها لأنى أعيش بكل وجدانى معك . وإلا فلاعيش لى مطلقا . ولئن طفت الأرض جميعاً وزرعت ما بين المشرق والمغرب فسأعود آخر المطاف إليك صائحا من أعماق الروح . . أيها القلب ، هنا مستقرك . وفى هذا الموضع الحنون منزلك . وعندئذ تستطير روحى ملففة فى ثنايا روحك لتملأ عالم الأرواح حبا . . . »

ولكن الفتاة مع الأسف لم تقدر هذه العاطفة العلوية . . . كانت تحتقره فى نفس الوقت الذى كان يعبدها . .

وذات يوم وصلته دعوة تنبئه بعقد خطبتها على الضابط فتضاعف حزنه . . وهجر المكان الذى « عرف فيه أعظم حب وأعظم ألم »

وهنا تحولت حياته . وشاعت الأحزان فى موسيقاه . والتاع قلبه الحزين وغمر نفسه الألم . . . ولما ماتت « جيلنيا » كتب فى مذكراته « لقد مات معها حبي العظيم الأول . الحب الذى لم أنسه فى حياتى لأننى ظللت أفكر فيه دائما بعاطفة واحدة لم تتغير » .

وعادت إلى نفسه أحزانها . . . حتى كان يكتب عبارات غاية فى القسوة : « أريد أن أشد أصابعى فى عنق القدر. أنه لن يستطيع أن يهصر عودى حتى يقصفه . ماأجمل أن يحيا الإنسان حياته الغامرة . . . »

ولعل أبلغ حادث أثاره . هو أن ذهب إلى الأوبرا ليرأس جوقة الأوركسترا . وما أن بدأ التمثيل حتى تبين له أنه لا يسمع شيئا من غناء الممثلين . وانبعثت نغمات الأوركسترا فأخذ يلوح بعصاه فسبق الغناء ثم تأخر عنه واضطرب الممثلون وشاع الهرج بين النظارة فأوقف التمثيل وأسدل الستار .

وتلفت بتهوفن حوله ليقرأ فى وجوههم هذه المأساة فوجد وجوها تحمل علامات الاشفاق . فخرج إلى بيتـه يائساً منزعجا حيث ارتمى على فراشه وغطى وجهه بيديه وأخذ يسبح بعيداً وقد عقد الألم لسانه عن الكلام .

وكان يضطرب فى جدران مسكنه المتواضع وحيدا بين أثاثه المهوش ونوتاته الموسيقية على صورة تدعو إلى الرثاء وتصور غرابة حياة هذا الفنان الكبير .

واشتد الأمر به حيث تراكمت عليه الديون ، مات صفوة أصدقائه وبدأت الوحشة تدب فى حياته . حتى أنه كان يشترى طعامه من السوق ويعده بيديه . وكان لا يخرج أياما طويلة لأن أصابعه برزت من حذائه .
وقال فى مذكراته : « إن الحاجة اشتدت به حتى كاد يستجدى السابلة وإن كان قد اضطر إلى التظاهر بسمة الوقار . وأرسل إلى صديقه جوته يلومه يطلب إليه المساهمة فى نفقات الحفلة الموسيقية التى أقامها وأزعجه أن ينصرف جوته عنه فلا يعنى بالرد عليه .

ولكنه مع هذا الإجراء اليائس كان يتطلع إلى السماء ويقول :
« أن العظمة هى بلوغ الإنسان الكمال فى ذاته الباطنة » . . ويقول .
« متى امتلئت نفوسنا بالخير تلألأت فوق رؤوسنا نجوم السماء » .
ومن أعظم أثاره «القداس» والسيمفونيه التاسعة . وقد أنشأ القداس فى أشد أيامه فقرا وجوعا حيث كانت تحاصره الديون والصمم والوحدة الموحشة . .

ولكنه صدر عنه رقيقا حنونا . ساميا فيه نجوى مؤمن وروح عبقرى . وقد ظل عاكف على إبداعه خمس سنوات يبدأ بهذه العبارة «الله أكبر وبيده الخير ، وأنا أضع بين يديه الرحيمتين نفسى هائئة مطمئنة »
وستظل السيمفونيه التاسعة خالدة . . . ما بقيت الموسيق .
وعند ما وافاه الموت قال كلمته الساخرة لأصدقائه الذين كانوا حوله .
« صفقوا يارفاق فقد انتهت المهزلة »

لامارتين ـ الفير

عاشت « الفير » قبل أن تلقاه سنوات طويلة . حزينة كئيبة . كانت نفسها الحنونة المشرقة تتطلع إلى الحب والجمال والضياء فى صورة شاب حلو الشمائل عظيم الشخصية .. فقد عاشت يتيمة لم تأخذ حظها من الحنان وترعرت أنوثتها ونضجت وهى فى صحراء كلها الظمأ والفراغ ..

وفيما هى فى هذه الحيرة التى تلم بالفتاة اليتيمة الجميلة فى هذا السن من الشباب . تتطلع إلى الأفق فلا ترى قبسا من ضياء أو علامة تدل على أن ليلها قد أوشك أن ينتهى وإن الصباح قد أوشك أن يطلع .. فإذا بها فجأة بين يدى « لامارتين »

كان الرجل العجوز الثرى قد زودها بالمال لترحل فزارت إيطاليا وسويسرا وحدها ، حتى تجدد صحتها بعد أن غلب عليها الشحوب والهزال

وبينما هى فى جنيف ، فى مطلع الخريف ، والشمس ترسل أشعتها نحو الغروب .. وهى تتنزه فى قارب يطوف بها بحيرة « كامو » اتفق أن تغيرت الرياح ، واضطرب القارب ثم انحرف وأوشك ماء البحيرة أن يبتلعه لولا أن أسرع إليها لامارتين وكان يتنزه قريباً منها فى قاربه ومازال هو ورجاله الأشداء حتى تمكنوا بعد جهد من انتشالها فى الوقت الذى انقلب قاربها على ظهره .. وغاص فى لجة الماء الهائج ليستقر فى اليم .. وحملها لامارتين بين ذراعيه القويين مغمى عليها حتى الشاطىء ، وجعل

يسعفها بمعاونة رجاله حتى أفاقت . وأمضى لامارتين ليلة كئيبة فى كوخ أحد الصيادين وهو ساهر على راحة الفير التى ملكت عليه لبه وأحبها من أول نظرة حبا جارفا .

ولما طلع الفجر كان واقفا يصلى إلى الله من أجلها .

ثم فتحت الفير عينيها ونظرت حولها . ورأت ابتسامة « لامارتين » وفهمت كل شىء وأمضى لامارتين والفير أياما على شاطىء البحيرة . كانت كلها ساعات من الصفو والحب والعاطفة . وكان حبهما عذريا طاهرا ، فقد ظلت الفير تحتفظ للرجل الكهل بالثقة التى منحها إياها

لقد أحبته الفير من أعماق القلب . ولم تشأ أن تخفى عاطفتها عنه بل صارحته بها فى عبارات صادقة ملتاعة « إننى أحبك حبا جما ، والطبيعة التى تعرف قلبى حق المعرفة هى التى تستطيع أن تفصح عن هذا الحب الجارف الذى أشعر به نحوك »

وكانت الفير ولامارتين يحسان بالحرمان الصاعق فى هذا الحنان .. لقد تقابلا بعد فوات الأوان .

وكانت الوحشة التى يغمرها الغد تبدو لها فتفسد ساعات الحنـــان والصفو والحب .. كان هناك من ينتظرها ، لقـــد بعث إليها يطلب إليهـــا العودة ..

ومضت تستعد للفراق .. التى سيحول بينهما ، إنه أشد إيـــلاما من الموت .

وأخيرا جاء هذا الخطاب من العجوز الذى يعرب عن أنه يريد أن

يودعها قبل أن يلفظ آخر أنفاسه وهو على فراش الموت .

ومضيا يودعان الأماكن التى غمرتها ذكرياتهما الحلوة الناعمة فى هذه الأيام القليلة المفعمة بالحب والحنان . لتعود إليها الوحشة والظلمة بعد فراقهما . وقطعا وقتا طويلا يسيران يجللهما الصمت . ليس هناك إلا نظرات وآهات .

ورحلت الفير لتلحق بالرجل الكهل الذى حفظت له يده أنه انتشلها من الفقر ومنحها الثراء .

وكان وداعهما حاراً فيه ذلك الشوق اللافح والأمل المرغب

وعاش كل منهما على رسائل الآخر . لقد كتب لامارتين آيات الأدب فى تصوير عاطفته وحنانه وأحزانه .. كانت هذه الرسائل هى زادهما الروحى .

وعاشت على رسائله . حتى أتيح لهما أن يلتقيا مرة أخرى على ضفاف بحيرة إكس ، وجمعتهما الأقدار مرة أخرى . وفى أعماقهما ذلك الحب العفيف العنيف ، وكانت آمالها على وشك أن تتحقق ، لولا أن عاجلها المرض . كأنما كان لقاؤهما نذير الوداع .. وماتت الفير ، وحزن عليها لامارتين حزنا شديدا . وكانت وحى مقطوعات رائعة خالدة هى ديوانه « البحيرة » التى شهدت لحظات الهناء القليلة التى ضن بها الزمن .

.. لم يذق لامارتين بعدها للحياة طعما .. عاش متطيراً متشائماً حزيناً كان عزائه فى ذلك « الصليب الذهبى » الذى ماتت وهى ممسكة به فاحتفظ به طول حياته وغدا أقدس شىء عنده .

ولكن لامرتين أحس بأنه لا يستطيع أن يستأنف حبه فحبس نفسه شهوراً فى شبه ناووس من زجاج مع صورة من عبدها ثم فقدها .

وأخرج للإنسانية أدباً رائعاً . كله الحسرة والحزن والتفجع على ملهمته التى ماتت فى السابعة عشرة من عمرها . .

وعكف على البحيرة . . يعيش لحظاتها . وصباحياتها وأمسياتها . فهى شريكتهما فى لحظات الهناء . وجعلها صديقة له . يحدثها ويناجيها ويشركها فى آلامه وأحلامه . .

ورسم لها صوراً رائعة من الأدب كانت صدى آلامه وأحزانه وشقائه وتشاؤمه . كان إذا طلع ضوء القمر لا يجد فيها إلا أرواح الموتى . وكانت النجوم والجبال والبحر والصخور كلها عنده أمواج من الحزن والأسى فقد راح لامرتين يشرك الطبيعة فى آلامه وأحلامه فوصل بها كل ناحية من نواحى قلبه . . وكان حديثه كله مناجاة وصلوات . .

ومن رائع شعره ... « لم يستطع قط فوق جبين أزهى من جبينها . ولم يتأمل قط عين إذ تنظر إلى سناء الشاطىء الملتهب وجلال الخضم المضطرب . .

لقد أبصرتها أنا كذلك . حتى أن وجدانى قد طبع شخصها الحى فى نفسى . تلك النفس التى تحتفظ بكل شىء . فلا تموت صورة فيها ولا تمحى .

نعم . لم تزل حية فى نفسى ! فكأن عينيها الساجيتين ترمقان عينى

بنظراتهما وكأننا كنا سوية نلتق بأحاديثنا الأولى فى اليم . وشعرها المغدودن الفاحم يستسلم إلى أنفاس النسيم ويسترسل معها . فتداعبه تارة وتستخف به أخرى . ثم يلتى هذا الحجاب الهائم ظله الكثيف . على وجهها اللطيف . وإذا كانت ترهف أذنيها لتسمع أنشوده الصياد الذى يتخبط فى ظلام الليل . . . »

ولما دنت ساعة موته . تناول ذلك الصليب . وأخذ يتحسس الموضع الذى كانت تضع عليه فمها لتقبله . وأغمض عينيه وهو يقبله فى نفس الموضع .

سو نتات جوته

عاش جوته حياة كلها حب . ينتقل من فن إلى فن. إن لحظة واحدة من حياته لم تمض بغير عاطفه ..

كانت شرلوت بطلة قصته الضخمة التى هزت الأدب الأوربى «آلام فرتر» قد التقى بها فى مطلع حياته . وكانت مخطوبة . فتراجع جوته وفى قلبه غصة .. ويشاء القدر أن يلتقى بها بعد أربعين سنة. تسأله الرعاية لولدها. وكان كل شيء قد تحول . لم يجدها هى . ولم تجده هو .

ثم أحب فى فيمار . البارونه فون ستين . التى تكبره بسبع سنوات . كانت قد سمعت به . وكان قد سمع بها. واشتاق كل منهما أن يرى الآخر. فلما التقيا تحابا، وعاش حبهما عشر سنوات . وانقطع ما بينهما ثمه ، ثم عاد مرة أخرى .

وأحب كريستان . هذه التى تزوجها بعد أن أحبها وانجب منها .

وكان جوته محباً دائما . قلبه عاشق . وصفه أميل لدوفيج بأنه لم يكن المطلوب دائما . وإنما كان الطالب المتوسل . وأنه مادخل حومة حب الا اعتصم منها بالهرب .

ولم يقف سن الشاعر حائلا بينه و بين الحب ففى سن السبعين أحب وهذه صورة من أدبه الذى ألهمته أياها حبيباته :

«ذهبت إلى الغاب لا أدرى فيما ذهبت . وما كنت أريد شيئا . ولا عنانى أنى أريد . فإنى لأرسل النظر فى ظـلالها فإذا زهيره هنالك وضيئه وكأنها نجمة مليحة وكأنها عين. هممت أن أقطفها فسمعتها تقول فى لطف ورخامة : «اقاطعى أنت لأذوى بين يديك بعد هنيهة .» فحنوت عليها من جذورها . ونقلتها إلى حديقة المنزل. وهناك غرستها من جديد فى مكان فريد فترعرعت ولم يفارقها الرواء .. »

ويصف ليالى الحب « فى قشعريرة ليالى الحب . تلك القشعريرة التى ولدتك وفيها أنت تلد . يغزوك شعور غامض غريب . حين تضىء الشمعة الوديعة الهادئه . حينئذ لا تظل غارقا مغموراً فى ظلام الظلام الظليلة . إنما يمزق فؤادى رغبه جديدة عنيفة . ونزعة قوية إلى اتحاد أعلى وامتزاج سام . ولن يعوقك البعد مهما طال . وإنما ستأتى سريعاً طائراً قد أخذك السحر فتعشق النور . وأخيرا تحترق الفراشة . وبغير هذا الموت فستظل ضيفا مجهولا مقيما على هذه الأرض المظلمة .. »

وكان جوته يقول «أن أروع الشعر ما يقوله الشاعر من الداخل للخارج» وقد صادق أمير فيمار وقضى عنده شطراً كبيرا من حياته . وقسم عمله بين الفن والسياسة . وهوى الفروسية والصيد والزحف على الجليد وتعلم الموسيقى والأدب والفلسفة وأحب السلام والغرام ونفر من الحرب وتزوج فى سن التاسعة والثلاثين ولكن ذلك لم يصرفه عن الحب. وتعد صداقته للشاعر شلى من أعظم الصداقات التى قامت بين الأدباء . ولما مات شلى كتب جوته يقول « لقد فقدت من نفسى قدر نصفها »

وقد وصف بأنه وثنى يعبد الجمال . وكان لرحلته إلى اليونان وإيطاليا أثرها فى تكوين أدبه .

وقد عرف عنه القدرة على رياضة النفس والسيطرة عليها فى أوقات الأزمات العاصفة وظل حريصا على الاعتدال والبعد عن الاسراف . فلم يسرف فى رأى أومتعة . وكان لذلك علة جسمية فقد أصيب بنزيف فى صباه حال بينه وبين الاندفاع فى الملذات .

وكان يقول دائما « أتعرف كلمة الحياة الأخيرة . كن فرحا . فإن لم تستطع فكن قانعا . . إن الفرح والحب جناحان يرتفعان بنا إلى جلائل الأعمال . . »

وقد لقى نابليون الذى سأله عن فقرات من قصته (فرتز) ووصفه « ها كم رجلا » ولعل أبلغ حدث فى حياة جيته كتابته السونتات فى سن السابعة والخمسين بعد أن رفضها طوال حياته وذلك تحت تأثير حبه « بندورا »

كانت فى سن السابعة عشر . عندما رآها . كانت فتاة يتيمة ذات نفس رقيقة متواضعة . ولم تكن الفتاة فى مستوى الكاتب الفيلسوف . . .

وكان جيته قد كره المتحذلقات من النساء وتطلع إلى فتاة بسيطة الفكر والعبارة عزوفة عن الحياة . زاهدة فى مظاهر الشرف . بدأ هذا الحب بصورة عاطفة أبوية ثم ازداد وتدفق .

وكانت تهوى الرسم والتصوير والألوان المائية . ونمت عاطفة جيته واندفع يكتب السونتات فى تدفق بعد أن كان خصما لها . وجاء دور جديد لهذا الحب حين بدأ شاعر آخر ينافسه فى قلب الفتاة .

« تدثرت [1] برداء طويل غطانى حتى وجهى وهبطت إلى الهول التى أشاع فيها الشتاء ظلمة وكآبة . وكان متخداً شعبا صخريا رمادى اللون وعراً . وفى نفسى اضطراب وبى نزوع إلى الفرار .

---

(١) من ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى .

وفجأة بدا لى فجراً جديداً قد لاح فى الأفق أضواءه . لاح فى رؤية فتاة ناهد ! أجل لقد تبدى أمامى فى كمال يعدل كمال العاشقات الرقيقات . أنه لسواء عندى أن أحيا الآن أو أموت . فقد أبصرت بعينى رأسى مثل الفضيلة الأعلى . وانحنيت على الينبوع فرويت منه ظمأى .

ولكنى فنان وطبيعتى أقوى منى . ومهما ارتويت فلا بدأن يتجدد ظمأى . ولذلك أريد أن أعيش بقربك . وعلى مشهد منك . وفى ظل حنانك الوارف . فاقبلنى عبداً لك واغفر لى حبى . . »

وكان جيته قد التقى بالفتاة فى طريق العين . فكان يقصد إلى العين كل يوم ليراها . وانطوت نفس الشيخ على حب دفين . لم يكن يتمثله إلا فى موسم الصيف عندما يقصد إلى مارتيناد . . وأخذ الشاعر يرتب الوسائل للزواج . . وحمل الرغبة إلى أهلها امير ويمر فلما عرفت الفتاة عارضت وقالت إنما كانت تحبه حبا أبوياً .

وكان الجواب قاسيا على الشاعر الكبير فكتب قصيدته مرثية « مارتيناد » وخلف المدينة ومضى . .



ليالى الفريد دى موسيه

كانت المرأة بعيدة الأثر فى إلهام دى موسيه . ليس الحب وحده فقلما يصنع الحب مجداً وإنما هو الغدر ، لقد أحبته جورج صاند لأنها كانت تفتقر إلى الرقة والليونة والعطف ولأنها وجدت فيه ما ينقصها ، وأحبها هو بعد أن فتنه نبوغها وشهرتها ولكنها وقد غدرت بكل من أحبها وزهدت .. غدرت أخيراً بدى موسيه فقد كانت سريعة التقلب وكانت تسدد سهمها فى أشد الأوقات حرجا ..

لقد طعنته وهو على فراش المرض حين خانته مع الطبيب فانقلب حبه إلى بغض هائل هو الذى أوحى إليه لياليه ، لقد قتلت فيه المرأة عاطفة الإيمان بالمرأة ويصف الغدر فى ليلة أول أكتوبر فيقول « لقد كنت أول من علمنى الخيانة ، وقد ذهب بعقلى الرعب والغضب ، وعلمنى صوتك الحزين وابتسامتك ونظرتك الخادعة كيف أتنكر لكل سعادة ولو لم يكن منها إلا الشبح ، لقد ألقى بى شبابك وسحر جمالك إلى اليأس، وأصبحت وقد رأيتك تبكين أشك حتى فى صدق الدموع .

ويل لك ، لقد كنت فى سذاجة الطفل كالزهرة يبللها ندى الصباح حتى تفتح قلبى لحبك ، وكان قلباً غريرا فخدعته أثامك ، ولكم كان أيسر عليك أن تتركى لى طهره ، ويل لك ، لقد كنت أول ماعرفت من ألم وعنك تفجرت دموعى ، ثق أنها ماتزال تتدفق . وأنها لن تجف ، وهى

تجرى من جرح ماله أن يندمل . ولكنى سأغسل قلبى من هذا النبع المر وساخلف به — إن صدقت أمالى — ذكرياتى البغيضة .. »

وقد صور حبه وأشواقه فى أكثر من قصيدة رائعة .

« أننى لم أحب بعد . وما أكثر النساء اللواتى وجدتهن فى طريق . غراميات عابرة ونسيان سريع . إن الغراميات القصيرة كتلك التى يشهدها البحر . ثم يغيبها فى طياته . كما يغيب أصحابها فى زحمة الحياة .

إننى أريد أن أحترق . فأين ذلك الألم الذى يحرقنى . إننى أجد كل شىء طوع يمينى . الفراغ والشباب والنساء . ولكننى أريد أن أستسلم لامرأة تشخننى بالجراح . سأستلم للمرأة التى تمزقنى تمزيقا . إن هذه الصفات المروعة تجلب فى أعقابها المجد . . . »

وأظهر ما فى عاطفة موسيه « الغيرة » والمزاج الحاد . وقد كان يتردد على سيدة شابة ذات ظرف وجمال وأناقة وذكاء فأحبها . ولقد انطلقت معه فى الحب ثم عادت فصارحته بأنها لا تشعر نحوه بالحب الذى يرجوه ونظم فيها قطعاً من الشعر . ولم تلبث السيدة أن قاطعته فاشتد عليه الحزن فسكبه فى ليلة ديسمبر :

« وفى البندقية [1] عند اللبن واليشع حيث يأتى الأدرياتيك الشاحب ليموت فوق حشائش قبر وفى كل مكان تحت السموات الواسعة حيث تركت قلبى وعيناى تدميان من جرح خالد فى كل مكان حملتنى السائمة العرجاء فوق محفتها ومن خلفها نصيبى . فى كل مكان ينبعث فيه شبح أحلامى وبى ظمأ لاينطفىء لعالم مجهول . وفى كل مكان عدت فيه إلى ماسبق

(١) من ترجمة للدكتور محمد مندور .

أن رأيته دون أية مغامرة فى الحياة . عدت إلى الوجه البشرى وأكاذيبه . فى كل مكان حيث وضعت جبهتى فى يدى على طول الطرق وانتحبت كامرأة . فى كل مكان أحسست روحى تتعرى كالحمل عندما تنهش صوفه الأعشاب الملتفة . وفى كل مكان أردت أن أنام فيه . وفى كل مكان أردت أن أموت فيه . وفى كل مكان لمست فيه الأرض . كان يأتى شبح بائس يرتدى ثيابا سوداء ليجلس فى طريق . وكان يشبهنى كأخ .

لقد رأيتك تظهر لى هذا المساء . كان ليلا حزينا . وجناح الرياح يضرب نافذتى وكنت وحيداً منكمشا فى فراشى أنظر فيه إلى مكان عزيز لايزال دافئا من قبلة كانت حارة . وكنت أفكر كيف تنسى المرأة . وكنت أحس ببضعة من حياتى تتمزق فى بطء . كنت أجمع خطابات الأمس . وشعرات رأسى وأنقاض حب . وكان كل هذا الماضى يردد فى أذنى أن الأبدية لم تدم غير يوم . كنت أتأمل تلك المخلفات المقدسة التى ترتعد منها يدى . دموع قلب يلتهمها قلب . والأعين التى زرقتها لم تتعرف عليها غداً . وهممت أن أضع الشمع الأسود فوق هذا الكنز العزيز الرقيق . وهممت أن أرده . ولكننى لم أستطع أن أصدق . وأخذت أشكو من جديد وأنا أبكى .

. . أيتها المرأة الضعيفة . أيتها المتغطرسة الحمقاء . ستذكرين رغم أنفك . لماذا يا إلهى تكذبين روحك . لماذا هذه الدموع وهذا النفس المختنق . وهذه الانتحابات إن لم تكونى تحبيننى . . . »

وكان موسيه يقول « أن عبقرية الفنان كالجواد الأصيل . إذا وضع اللجام بين فكيه لم يسترح حتى يقطع الشوط إلى نهايته . . »

روسو ومدام دوفان

إمرأة واحدة فى حياة جان جاك روسو . هى مدام دوفان : الحبيبة الأم كما كان يطلق عليها عندما التقى بها وهو فى السادسة عشر من عمره . وكانت تكبره بعشر سنين . ومضى معها يقطع طريق الحياة الطويل .. وكان قد جاءها بتوصية من قس طبيب ليبحث عن عمل أما هى فكانت قد تزوجت فى سن مبكرة . وفشلت فى زواجها . وانفصلت . وعاشت منزوية فترة فى أحد الأديره .

وكانت فى الثامنة والعشرون من عمرها عندما التقى بها فى ذلك السن الذى تحس فيه المرأة التى تحطمت أمالها فى الزواج الأول أنها تحن إلى المجهول وترقب الغد ليحمل إليها شيئاً مبهماً غامضاً لاتعرفه على وجه التحديد .

وقدوصفها روسو بأنها ذات شكل ساحر ،وأن ملامحها تفيض رقة . وأن لها عينان زرقاوان غاية فى الروعة . هذا إلى نفس صافية ورغبة فى المرح والطرب وأحس روســـو منذ النظرة الأولى . أنه وجد لأول مرة بعد مشاق طويلة وحياة مضطربة : اليد الآسية والقلب الحنون .

وألحقته مدام دوفان بعمل فى تورين . غير أنه لم يلبث بعد قليل أن عاودته الشكوى وغلب عليه الفشل . ثم عاد إلى أمه الصغيرة . مضطرب النفس خجلا . غير أنها تلقته بالرضى وآثرته بالبقاء معها فى دارها . ثم تعلقت به . فى صورة من الحنان الأموى وكان قد بلغ التاسعة عشرة

وأعادت الكرة لالحاقه بعمل . وتنقل من مكان إلى مكان ، وذهب إلى باريس ، ولكنه عاد مرة أخرى إلى ليون حيث تقيم مدام دوفان فألحقته بعمل آخر جديد .

وتوفر روسو على تدريس الموسيقى للتلميذات الصغيرات . ولكن أمه الصغيرة ضاقت بقصصه عن هاته الفتيات والشابات وتحدثت معه فى صراحة وقالت له أنها لم تحتفظ به ليتهالك على حب العذارى الحسان . وأنها على استعداد لأن توليه من روحها ونفسها مايحول بينه وبين هذا الشر الذى ينحدر إليه .

ومن ثم بدأت حياته فى صورة جديدة . فقد تحول ما بينهما إلى حب عاصف حار . وأخذا يمضيان أيامهما فى سعادة متصلة . يذهبان بعيداً فى الأحراش والحقول . يرتاضان وينعمان بكل شىء .

وعندما مرض روسو وقفت السيدة الثرية إلى جواره . تقرأ له الكتب وتعالجه ولكن أيامه فى الجنة لم تمتد طويلا . فقد صمم أخيراً على أن يذهب ..

ولكنه عاد مرة أخرى فوجد الدنيا قد تغيرت . لم يكن كل شىء كما كان يتوقع . لقد تحولت طبيعة مدام دوفان الحادة الملتهبة إلى فتور . ووجد هناك صديقاً جديداً . . فعاد يهيم على وجهه فى كل مكان وقد ضمر الظلام نفسه ..

ميكل أنجلو

بعد أن تخطى سن الشباب . ووصل إلى قمة المجد ، انهزم أمام المرأة . كان كبريائه النفسى يحول بينه وبين الحب . كان لا يرى أن هناك إمرأة تمكن أن تصل إلى مكانه وعظمته ، لقد حول عاطفته الحبيسة إلى خدمة الفن . وكان يؤمن بأن طبيعة المرأة كلها ضعف ولؤم ومكر . فآثر أن ينصرف عنها . وأن يضحى بها . وعاش ثلاثين عاما لم يتصل بامرأة .

لقد اتجه منذ شبابه الباكر إلى الرسم والنحت . وواجهته الحياة فى أول عمره عنيفة قاسية . لقد حقد عليه كل من عرف فيه مواهبه . فانعدمت ثقته فى الناس . .

ولكن المجد فتح له صدره فعاش فى جو الكنائس والبروج بين فلورنسا وروما وبولونيا يشرف تارة على صنع تمثال على صورة ملاك يمثل الوحدة بين العالم القديم والجديد . أو يصنع تمثال السيدة العذراء لكنيسة القديس بطرس . أو يبدع تمثال داود من المرمر فى كاتدرائية فلورنسا ، وقد برزت أوردته الدموية للعيان وبيده اليسرى يتناول المقلاع من على كتفه . وفى يده اليمنى يمسك بالحجر متأهباً لاطلاقه على عدوه الجبار جوليات . إلى صنع قبر البابا يوليوس الثانى وحوله أربعين حارسا يحيطون بجثمانه وكلهم قديس وبطل . .

ورسم سقف كنيسة « سستين » فقضى أربع سنوات راقداً على ظهره طيلة النهار فوق محفة خشبية يرسم ويلون ، حتى بلغ من إعياء عينيه وأعصاب بصره أن ظل بعد ذلك شهوراً عاجزاً عن القراءة . . ويحوى السقف رسما لاثنى عشر رسولا وقديسا ويعد من أبرز الآثار الخالدة حيث يمثل مراحل خلق الدنيا مرحلة بعد أخرى .

وهكذا مضت السنوات به واحدة بعد أخرى وهو مكب على الفن لا يفتح عينيه على دنيا المرأة وقد أمضى فى صنع ضريح البابا يوليوس الثانى ثلاثة وعشرين عاما . . وظل فى خلال هذه الفترة يتوجس خيفة من الناس فقد كان يصادف من الحسد والغيرة ويجد من يحاول تحطيم مشروعاته وإثارة الخصومات فشملته ريبة خفية حتى من المرأة . .

وكان قد وصل إلى غاية الثراء والشهرة . . ولكن العاطفة الظامئة إلى الحب والمرأة كانت تتفتح بعنف فى سن الحادية والستين عندما التقى بها .

إمرأة جبارة ملكت عليه حواسه . فمضى يجرب حظ قلبه بعد أن ملأ اسمه الدنيا وأعطاه ذلك الكبرياء . ولكن « فرانسو دافالوس » التى كانت فى السادسة والأربعين من عمرها أذلت القلب الكبير . إنها لم تحبه وإنما أشفقت عليه فازداد عذابه . كان كهلا جلل الشيب هامته فى هذه الفترة التى يصرخ فيها قلبه . وقد أحس بأنه لا يستطيع أن يحتفظ بهدوئه وأن قلبه الذى يضمه فى صدره يكاد يقتله واستسلم . . ولكن المرأة التى كانت لا تزال تعيش على ذكرى زوجها الميت رفضت أن تعيش معه

فى عاطفة و اكتفت بالصداقة . . واندفع هو الذى عاش بعيداً عن محيط المرأة سنوات طويلة يجرى خطوات متعثرة فى دنيا العاطفة فيها توسل وذلة . . ولكن المراة أعرضت عنه .

وانطوى ميكل انجلو . . وعاد إلى حياة الحرمان والوحدة يفكر فى وضع تصميم جديد لكنيسة أخرى . .

هيجو .. وجوليت

يتمثل فى قصة فيكتور هيجو قصة الصراع بين الإنسان والفنان وبين الزوجة والعشيقة ، فقد بدأت حياته تدخل فى مرحلة مظلمة . ويخيم على روحه الشقاء عندما أحس بأن زوجته تخونه مع صديقه سانت بيف . . وعندما أخذ يناقشها فى الأمر صارحته بأنها إنما تحب بيف حباً شريفاً ومضت تتهمه بأنه يخونها مع ممثلات رواياته ، وبدا على حياته شحوب وآلام . وتحولت إلى جحيم لايطاق ، فقد تناثرت رائحة الفضيحة فى كل مكان وتداولتها الألسن ...

وظل يذوق كئوس العلقم حتى التقى بالممثلة الشابة جوليت دوربيه التى أخذت تضمد جراحه وتملأ حياته بالهناء . وتقصيه عن وادى الآلام.

رأت فيه رجل أحلامها ، الرجل الذى تستطيع أن تهبه قلبها . كانت دوربيه ذات ماضى حافل بالعشاق والعواطف ولكن قلبها كان مازال بكراً . لم يقربه رجل . وعاش معها بعيداً ، وهجر أولاده وزوجته . ووجد فيها ووجدت فيه ... كانت من ذلك النوع الذى يبعث الحيوية والحرارة فى حياة رجل مهمته أن يكتب وأن يصور أحاسيس الإنسانية وأشواقها وأفراحها ...

كانت عميقة الفهم تعرف دقائقها . وتعرف كيف تعطى للفنان الكبير الإسم الذى هو بين يديها أشبه بالطفل . كانت فنانة تحس . وقد وجدت

فيه إنسانها فكانت تهتز لكل تصرفاته ، وكانت بالغة الاعجاب بكتاباته .

وكان يقول لها « أنا أقبل جسدك وأقبل روحك . لأنك تجمعين الجمال والنور فى وقت واحد » .

وقالت له أنها بصحبته تعمل على تطهير نفسها من أوحال الماضى . وآمن هوجو بأنها تمده بالفن والمجد . وأحس بأنها ترعى عبقرية رجل نكب فى شرفه وزواجه .

وقال المؤرخون إنها لعبت دوراً كبيراً فى حياة هوجو وفى انتاجه فتمكنت وحدها أن تدفعه إلى أن ينزل بقلمه إلى الآدميين الضعاف وإلى المضطهدين. وكان هذا لونا جديداً فى أدبه لم يقتحمه من قبل. فقد كانت هى من هذا النوع . وكانت قصة حياتها صورة عنيفة من صور الشقاء. ولم تكن تعرف لها أبا أو أما . ولدت لقيطة وواجهت الحياة كما تواجه مثيلاتها من شقاء واضطهاد .

* * *

لقد ضحت جوليت حين اختارت لنفسها الحياة مع هوجو . فقد اضطرها هذا أن تهجر حياة البذخ والترف التى كانت تحياها . وأن تضحى بأولئك المعجبين الذين كانوا يحيطون بها لتعيش فى مسكن صغير مكون من ثلاثة غرف مع فيكتور .. عاشت معـــه ثلاثة عشر عاما . فى حياة خاملة بائسة . كان يكتب ويكتب بلا انقطاع . وهى من وراءه تنظم له أوراقه وتحتضن إهماله .

وعندما قام نابليون بانقلابه الأمبراطورى سعت لدى رجاله لحالت بينه وبين الحكم بالإعدام ولم تكن تضيق بشىء أو تعبأ بشىء فى سبيل رعايته بل كانت تعد له الأماكن الآمنة خلال أيام المطاردة . وسبقته

إلى بروكسل عندما هاجر فاراً إليها وقد أمضى ثمانية عشر عاما خارج وطنه كانت هى فيها كل شىء له .. وهناك فى الجزيرة النائية كانت تسعد وحشته ، وتنير أيامه .

ولكن هل سعد هيجو بحياته تلك . لقد ماتت ابنته الكبرى غرقاً ومضى الحزن يعتصره فقد كان يذكر أولاده الذين هجرهم وهو فى حاجة إلى حبهم وهم فى حاجة إلى عطفه .. وكان ارتفاع السن يزيد هـــذه العاطفة قوة ..

لقد كان فى أشد ساعات هناءه يذكر ذلك البيت الذى هجره وأولئك الأبناء الذين ترك فى حياتهم فراغا مروعا ... ويعود إليه تأنيب الضمير وتغرورق عيناه بالدموع . وكان يعاوده وهو الشاعر الرقيق النفس شبح ابنته التى فقدها والتى كانت تطرق عليه بابه كل صباح فيلتاع ..

وكل ما يمكن أن يقال عن أثر جوليت فى حياته أنها بدلت أفكاره فجعلته ينظر إلى العالم من زاوية جديدة . هى زاوية البسطاء والفقراء وتزعزعت ثقته فى الأمبراطورية والآلهة والبشرية وتحول إلى شخص اشتراكى يدافع عن حقوق المحتاجين وكتب « البؤساء » تحت ضغط الاتجاه الذى صنعته فى نفسه جوليت .

وكان يصف حبه فيقول « تحت شعرى الأبيض يعيش حب فى عمر الربيع . أن النور لا يعرف الأعمار » . وفى سن الثمانين ماتت جوليت فكتب يقول : « لقد واروا جسدك وأعلنوا وفاتك ومع ذلك فلن أتوقف عن حبك وأنا أيضاً لو كان أجلى قد حان قبل وفاتك . فثقى إنى سأظل أحبك . وإذا كنت قدمت يا حبيبتى فأنا الآخر لم يعد أمامى إلا أن أموت .. » .

وهكذا يصنع الحب فى رجال الفكر .

نساء ورجال

نابليون وجوزفين

إن حب جوزفين هو أروع صفحات قلب نابليون . لقد عرف الكثيرات وأحب الكثيرات ولكن حب جوزفين بقى خالداً . فقد أحبها وهو ضابط صغير حباً ملك عليه عواطفه وميوله . وكانت سيئة السيرة بعــــد وفاة زوجها الأول . ولكنه لم يأبه إلى ذلك ولم يستمع إلى تحذير أصدقائه من ماضيها المعيب . أو حاضرهـــا المحوط بالريب وأقبل عليها بعواطفه فى حب عجيب . انتهى بزواجه بها .

وتحول من الضابط الكورسيكى إلى الأمبراطور الذى يضع على مفرقه تاج شارلمان فى سنوات قليلة . وبلغ بذلك مجداً لاحد له . وأصبح سيد أوربا الذى خضعت لسلطانه ممالكها ودان له كل ملوكها بالطاعة والولاء .

وفى خلال هذه الأيام التى كان نابليون يصعد فيها إلى قمة المجد . كانت جوزفين تحتقره وتخونه مع رجال دونه . وكان هو فى نفس الوقت يحبها بعنف . ويتمثل حبه فى رسائله النارية الملتهبة التى كان يبعث بها إليها من ميدان القتال .. حيث يخوض المعارك .

« محبوبتى .. إن كل لحظة تمضى تزيد فى التفرقة بينى وبينك . وفى كل لحظة تتضاءل مقدرتى على الحياة وأنا بعيد عنك .

.. هل لعبقريتى التى حافظت على حياتى دائما وسط المخاطر أن تحيط بك وتضمك إليها . فى حين إننى أواجه منيتى . وإنى مجرد من حذرى .

يامعشوقتى جوزفين . أيتها الفريدة بين بنات جنسك . ليس فى البعد عنك سعادة . إن العالم بدونك صحراء مقفره أقف فيها وحيداً لا أستطيع التخلص من الأحزان التى ترزح تحتها نفسى .

لقد سلبتنى ماهو أكثر من روحى. أنت الأمل الوحيد الذى تدور حوله أفكار حياتى فأنا أضع يدى على صدرى حيث تنبق صورتك فى إلفة مع قلبى. حين تضينى أعباء وظيفتى وحين يخامرنى الشك فى العواقب وحين أنفر من الناس.

جوزفين : آه لو كنت تحبيننى. وآه لو كنت تدركين كيف يتوقف كل شىء على صحتك. تعهدى نفسك بالعناية. إننى بغيرك لا أعد شيئا مذكوراً. وقلما أتخيل كيف كان فى مقدورى أن أعيش بدون أن أعرفك.

إن الحب الذى ألهمتنى إياه قد سلبنى عقلى. و لن استعيده مرة أخرى. إنه داء ليس له دواء. أن الهواجس التى تنتابنى تنذرنى بالشر. حتى إنى لأرجو لو رأيتك وضممتك ساعتين إلى قلبى. و بعد ذلك نموت معا.

أنت. وأنت وحدك هى التى تستطيع أن ترضينى وتستغرق كل قواى العقلية. ليس فى قلبى أى جزء لم تحل فيه. وما هنالك من خاطر إلا كان طوعا لك. إن قوتى وجبروتى و نفسى. كلها لك. إن روحى تقيم فى جسمك. واليوم الذى يعتريك فيه التغيير أو تفارقين الحياة. سيكون بغير شك يوم مماتى.

.. إذا أنا سئلت كيف حال نومى أحس بأنه ينبغى على قبل الإجابة أن أظفر برسالة تنبئنى بأنك قد أمضيت ليلة طيبة. إن العالم بدونك صحراء مقفرة أقف فيها وحيداً ولا أستطيع التخلص من الأحزان التى ترزح تحتها نفسى، إننى أناضل لكى أكون قريباً منك. أنا لا أراك الآن. لقد فقدت ماهو أكثر من الحياة ومن السعاده ومن الراحة. إننى أكاد أحيى بغير أمل.. »، ولكن الأمر تحول بين نابليون وجوزفين...

فبعد أن وصل هو إلى قمة المجد بدأ يتحول عن حب جوزفين . وبدأت هي تحبه بعنف . وكلما ازداد هو رفعة وقوة . كانت جوزفين تضمر وتبدو عليها علامات الشيخوخة . وقد زادها القلق خوفا من جموح السن التي بدأت تغتال نابليون ..

وكان خوفها ينصب في سؤال واحد : « هل تبقى على عرش فرنسا أم أن نابليون سيتزوج غيرها؟» . وبدأت جوزفين تحاول استرضاء نابليون وتغار عليه وترصد أخباره وتستطلع أسراره .

كأنما كانت تكفر عن ماض طويل عاشت فيه متهالكة على اللذات ، ساخرة به ، بعد أن رفعها على عرش فرنسا .. فقد كانت في نفس الوقت الذي تنصب له أقواس النصر وتصعد على رأسه أكاليل الغار كانت هي تخونه في أحضان الضابط الشاب « هيوليب شارل »

وكان نابليون بعـــد أن تم له النصر في النمسا قد أخذ يفكر في تخليد إسمه وإمبراطوريته ولم تكن جوزفين تلد ..

ولم يلبث نابليون الذي كان متهالكا على جوزفين . أن صارحها بالطلاق . وتزوج ماري لويز ..

ولكن العجيب أن الأمر تحول بالنسبة لنابليون كأنما كانت جوزفين تمسك بطرف حبل الحظ . فقد بدأ بعدها يواجه الكوارث . حيث انهزم في حملة روســيا . ومعركة ليبزج وجزيرة البا ثم معركة واترلو .. ثم نفي إلى سانت هيلانه ..



ابن حزم

وهذه صورة أخرى من هيام المتصوفين أكثر عمقا ودقة وروعة . ذلك هو الإمام المحب : ابن حزم الذى بلغ حبه من القوة حدا كبيرا . . ولكنه لم يتغلب على عفته وصلابته .

كان إمام الأندلس الذى يروع بجلاله وإيمانه وتقواه فى ميدان الفقه والتشريع ، ولكنه كان فى صميم ذاته محبا يخفق قلبه بالحب . وكان إلى هـذا وسيم الطلعة رقيق الشمائل ، مشبوب العـاطفة ذى عزيمة حاسمة مع خوف من الله ، أسر لبه الجمال فأحب مرة ومرة . . وكان ميدانه من الميادين الخصبة العامرة بالجمال .

وقد وجه إلى « ابن حزم » الكثير من اللوم لأنه وهو رجل الشريعة قد جاوز ما عرف من التقاليد فأعلن حبه وقد أجاب عن ذلك فى أبيات من الشعر :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى ... وسيان عندى فيك لاح وساكت

متى جاء تحريم الهوى عن محمـد ... وهل منعه فى محكم الذكر ثابت

إذا لم أواقع محـــرما اتقى به ... مجيئى يوم البعث والوجه باهت

فلست أبالى فى الهوى قول لائم ... سـواء لعمرى جاهرا وخـافت

وهل يلزم الإنسان إلا اختياره ... وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت

وقد أراد ابن حزم أن يصور عواطفه وأن يفضى بما فى نفسه من عاطفة فاتخذ طريقة مبتكرة إذ تناول عاطفة الحب بالدراسة فى كتاب شيق هو « طوق الحمامة » وقد وضعه هـــذا الكتاب فى صف كاتب العاطفة الفرنسى « ستندال »

ورغم اتخاذه أسلوب الموضوعية فى دراسة عاطفة الحب إلا أنه رسم صوراً فى غاية الروعة والصدق

يقول : « دعنى أخبرك . إنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما إستحسنت فى ذلك الوقت سوداء الشعر . ولو نه على الشمس أو على الحسن نفسه . وانى لأجد هذا فى أصل تركيبى فى ذلك الوقت ، ولا توا تينى نفسى على سواه ولا تحب غيره النية .

ويصور إحدى تجاربه العاطفية فيقول « . . إنى أجد من دهى بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة ذلك أنى كنت أشد الناس كلفا وأعظمهم حبا بجارية كانت فيما خلا اسمها « نعم » وكانت أمنية لمتمنى . وغاية الحسن خلقا وخلقا وموافقة لى . وكنت أبا عذرها وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتنى بها الأقدار واخترمتها الليالى ومر النهار . وصارت ثالثة التراب والأحجار . وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هى دونى فى السن . فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد من ثيابى . ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن (أى بعد خمسة عشر سنة) ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطريف . وببعض أعضاء جسمى العزيزة على ، مسارعا طائعا . وما طاب لى عيش بعدها . ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها . ولقد

عفا حتى لها عن كل ما قبله وحرم ما كان بعده . . »

وهذه صورة الحب عنده :

« . . ما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهراً . وأخذى معه فى كل جد وهزل . وكذلك أنا فى السلو والتوق . فما نسيت وداً لى قط . وأن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء . ولا أسرعت إلى الأنس لشىء قط أول لقائى له . وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابى قد كنت لا أقول فى الآلاف والاخوان وحدهم ولكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومطعوم .

وما انتفعت بعيش . ولا فارقنى الاطراق مـــنذ ذقت طعم فراق الأحبه . وانه لشجى يعتادنى . وولوع ما ينفك يطرقنى . ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش استأنفه . وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . . »

ودعنى أخبرك أنى ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رفه عنه سريعاً . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان ورائها مرمى. فما وجدتنى إلا مستزيداً . ولقد طال بى ذلك . فما أحسست بسآمة ولا أرهقتنى فترة . ولقد ضمنى مجلس مع من كنت أحب فلم أجل خاطرى فى فن من فنون الوصل . إلا وجدته مقصراً عن مرادى . وغير شاف وجدى . ولا قاضى أقل لبانة من لباناتى . ووجدتنى كلما ازددت دنواً . ازددت تلوذا وقدحت زناد الشوق . نار الوجد بين ضلوعى . . »

وهكذا عاش ابن حزم بقلب يخفق . ونفس كريمة لا تعلق بها الآثام
وهو فى هذا يقاس أشد الحرمان . ويخاف الله ويخشى الحساب .
ولكنه لا يصبر على الحب العنيف الذى يفيض عن عاطفة مرهفة .
وعن روح مشرقة بالضياء والنور .

لقد صور ابن حزم فى كتابه طوق الحمامة ثلاث وقائع من تاريخ
قلبه تغلبت العفة عليها جميعاً وجاز امتحانها بنجاح .

محب الدين بن العربى ـ والنظام

هذه صفحة مشرقة منا الحب لإمام من الأئمة الذين عاشوا مثلا على التصوف والزهادة . وقد يدهش بعض الناس ويسأل هل يكون لأية إمرأة مكان فى قلب الصوفى الزاهد .

والواقع أن أقرب القلوب إلى الحب هى هذه القلوب النقية السمحة الرقيقة التى عرفت الله فأنها سرعان ما تتأثر بالجمال .

لقد كان ابن عربى مندفعا فى طريقه ودعوته حين خرج من الأندلس إلى الشرق حاجا على عادة أهل الأندلس . كان عمره فى حدود الأربعين حين زار صديقه الشيخ مكين الدين فرأى ابنته « النظام » التى كانت على جانب كبير من الجمال .

لقد أحبها ابن عربى وافتتن بجمالها وأوحت إليه عاطفتها ديوانا من الشعر اطلق عليه أسم « ترجمان الأشواق » ووصفها فى عبارات رقيقة حلوة .. « .. بنت عذراء طفلة هيفاء. تزين المحاضر . وتحير المناظر من العابدات العالمات السائحات الزاهدات . ساحرة الطرف .عراقية الظرف . إن أسهبت أتعبت . وإن أوجزت أعجزت . وإن أفصحت أوضحت . مسكنها جياد ، وبيتها من القلب السواد . ومن الصدر الفؤاد . أشرقت بها تهامه ، وفتح الروض لمحاورتها أكمامه ، وعليها مسحة ملك ، وهمة ملك . فراعينا فى صحبتها كريم ذاتها ، وقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب

أحسن القلائد ، بلسان النسيب الرائق ، وعبارات الغزل اللائق ، ولم أبلغ فى ذلك بعض ماتجده النفس ويثره الأنس من كريم ودها ، وقديم عهدها ، ولطافة معناها ، وطهارة مغناها ، فأعربت عن نفس تواقة ، ونبهت على ما عندنا من العلاقة ، فكل أسم أدعو فعنها أكنى وكل دار أندبها فدارها أعنى » .

هذه هى خفقات قلب ابن عربى فى مقدمة ديوانه ترجمان الأشواق فى تصوير عاطفته للنظام، الفتاة الحلوة التى التقى بها عند صديقه فى الحجاز.

ولقد كان حبه عذريا خالصا ، فلم يزد على أن رآها مرة أو مرتين ، ولم يكن الحب فى تقديره عيبا أو منكراً فقد كان يدين بمذهب وحدة الوجود فلا فرق عنه إلا فى الاعتبار - بين الحق الخالق والعالم المخلوق كما يقول الدكتور أبو العلا عفيفى « فالحق هو الوجود المطلق الظاهر فى كل شىء يصوره ذلك الشىء والجمال المطلق المحبوب فى كل صوره ، والمعبود المطلق المقدس فى قلب كل عابد » .

وهو القائل :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه

فالحب دينى وإيمـــــــــــانى

وبين الحب والتصوف رابطة وثيقة وقد أتاح له هـذا الحب شعراً صوفياً رائعاً فيض شعور صادق، واحساس دقيق ليس فيه تكلف أو تعقيد.

وهو يصف الحب بقوله « خير الحب عندى ماكان عشقا مفرطا وهوى مقلقا وغراما ونحولا وامتناع نوم ، ولا تدرى فيمن ولا بمن ولا يتعين لك محبوبك » .

ويقول : « ما فى الموجودات إلا محب ، فالعالم كله محب ومحبوب ، وما أحب أحد غير خالقه ، ولكن احتجب عنه بحجب زينب وسعاد وهند وليلى ، وكل محبوب فى العالم ، فإن الحب سببه الجمال ، وهو له ، لأن الجمال محبوب لذاته ، والله جميل يحب الجمال .

« جاءت ليلى إلى قيس وهو يصيح « ليلى . ليلى » ويأخذ الجليد ويلقيه على فؤاده فيذيبه حرارة الفؤاد ، فسلمت عليه و.«قالت أنا مطلوبك. أنا بغيتك . أنا محبوبتك ، أنا ليلى . » فالتفت إليها قائلا: « إليك عنى فإن حبى شغلنى عنك » .

وقد وصف أثر الحب فى نفسه قال : « ولقد تركتنى أياماً لا أسيغ طعاماً . وكان أصحابى وأهل بيتى يعجبون منى عدم الغذاء . لأنى كنت أبقى الأيام الكثيرة ولا أذوق طعاماً ولا أجد جوعاً ولا عطشاً . وأعلم أنه لا يستغرق الحب المحب كله إلا إذا كان محبوبه الحق ، أو احداً من جنسه . لأن الإنسان لا يقابل لذاته كلها إلا من هو على صورته إذا أحبه . فما فيه جزء إلا وفيه ما يماثله ، وكلما ازداد مشاهدة ازداد حباً ، ولهذا فالشوق يسكن باللقاء ، والإشتياق يهيج باللقاء ، وهو الذى يجده العشاق عند الإجتماع بالمحبوب . لا يشبع من مشاهدته ولا يأخذ نهمته منه ، لأنه كلما نظر إليه ازداد وجداً به وشوقاً إليه مع حضوره معه »

ويقول إن المحبوب غنى فقليله كثير ، والمحب فقير فكثيره قليل ، وأن المحب أحياناً يستفرغ المحبوب فينسيه نفسه »

ويصف حب الحب فيقول : « لا يفرق بين الوصل والهجر ، لشغله بما عنده من محبوبه .

فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت
أشكو من الطول ما أشكو من القصر

وقد صور ابن عربي تجربة حب أخرى له وهي من هذا النوع الغريب الذي لا يعرفه إلا هؤلاء الزهاد .

« خدمت بنفسي امرأة من المخبآت العارفات ، يقال لها فاطمة ، خدمتها سنتين ، وهي تزيد في وقت خدمتي إياها على خمس وتسعين سنة ، وكنت أستحي أن أنظر إلى وجهها ، وهي في هذا السن من حمرة خديها ومن نعمتها وجلالها ، وكانت تؤثرني على كل من يخدمها ، وتقول ما رأيت مثل فلان فإذا دخل على دخل بكله ، لا يترك منه خارجاً عني شيئاً ، وإذا خرج خرج من عندي بكله لا يترك عندي منه شيئاً .. وما زلت أخدمها بنفسي وبنيت لها بيتاً من قصب بيدي على قدر قامتها فما زالت فيه حتى درجت وكانت تقول لي : انا أمك الإلهية .. »

راسبوتين

وراسبوتين أيضاً من الذين فتنتهم المرأة فتهالكوا عليها بصورة رائعة فقد كان هذا الراهب طويل القامة . غير مرتب الملابس . قذر المظهر . ذا لحيه شعثه يعلوها أنف كمنقار الصقر فى وسط عينان تلمعان فى حدة . وتسلط على أعين الناظر إليها وله بشرة رمادية بما تراكم عليها من أقذار كما كان معطفه ملطخاً ببقع الزيت المتناثرة فى جميع أنحائه .

ولعل هذه الصورة الغريبة وهذا المظهر الشاذ هو الذى جعل أفئدة النساء تهوى إلى هذا الراهب الذى وصف بأنه ذا قوة خارقة للطبيعه البشرية ، وأنه ما تكاد عيناه تلتقى بعينى إمرأة حتى تخر راكعة أمامه وتشعر كأنما خضعت لسلطانه .

ولقد كان الراهب الفلاح متيما بالنساء لا يتقيد بتقاليد ولا مبادىء فاستباح لنفسه معهن حرية واسعة فى العبث والمجون ، وكان بوهميا مجرداً من كل خلق .

وكان سكيراً عجيبا يشرب مهما يشرب فلا يفقد الرشد ، وكان ثلث المقدار الذى يبتلعه يكفى لقتل أى إنسان

وقد استطاع راسبوتين أن يخـــدع الناس وأن يصبح راهبا قديساً

يتبرك به العظماء والعظيمات ويسألونه الدعوات ، وكان قد مضى منذ شبابه يطرق أبواب الأديرة المتناثرة ويحج إلى الأماكن المقدسة حيث الراهبات الطاهرات فيعمل على إفسادهن ، وله قدرة خارقة فى السيطرة على عقولهن بدجله وشعوذته .

ولما وصل إلى العاصمة ازداد سلطانه ومضى يسيطر على كبار الأمراء والأميرات حتى سيطر على القيصر والقيصرة . ووضـــع أقدارهما فى يده .

وهناك كان يعقد حفلات لا يحضرها الرجال ، تدعى أليها سيدات روسيا اللاتى دعاهن إلى مذهبه (المتعبدات العاريات) حيث كانت هناك فرقة من الغجر تعزف موسيقاها وقد ادعى الراهب الأفاق بأنه يمحو خطيئة الجسد المقدسة .

واستطاع بعد وقت قصير أن يبسط نفوذه على كل شيء ، وتكاثر عدد تلميذاته اللاتى انضممن إليه ليظفرن بالراحة النفسية عن طريق خطيئة الجسد المقدسة فى ديره المزعوم فى بوكردتسلى .

ولم يكن من الطبيعى أن يستمر راسبوتين فى خداعه وبهتانه . . وكان من الطبيعى أن تجيء نهايته على يد إمرأة . إمرأة جريئة داهية . لا تخشى نظراته ولا تسجد لها ، وتؤمن بضرورة الخلاص منه . . وكانت

هذه المرأة هى الراقصة « كاترينا »

الذى قدمت له السم فى كؤوس الخمر . وأعدت له فطائر جافة حافلة بالسم . .

ومع ذلك فإن السم لم يقتل راسبوتين ، واخترق الرصاص جسده ونفذ من صدرة وترنح لحظة ثم مضى يزحف إلى الخارج بعد أن طفت على شفتيه موجة من الزبد الدامى . .

ولم تقضى عليه إلا رصاصة فى جمجمته . . .

وانتهى إلى أسوأ نهاية فقد ألقيت جثته فى نهر الينقا . ثم أحرقت بعد أن وضع عليها كومة من الأحطاب . .

الحب عند المرأة

لا تنشد المرأة فى الحب لذة العواطف الشعرية . وإنما تحب أن تشعر بالفرح ولا فرح للمرأة فى الحب إلا متى وثقت بأنها حقاً محبوبة . فالثقة بالرجل الذى اختارته لقلبها هى فى الواقع متعتها الكبرى .

ونحن لا نخاف الرجل لأنه قوى أو ذكى . بل نخافه لأنه فى صميم نفسه إنسان جاحد . لا يعرف الشكر . ولا يفهم عرفان الجميل .

فهو يحبنا بكل قواه . ويسعى ورائنا جهده . فلما نهبه أعز مالدينا يسخر بنا ويعرض عنا . أو يعتقد أن هذه الهبة كانت حقاً له . وأنه هو صاحب الفضل علينا .

الملكة التي خدعت الفاتح
كليوباتره

... ووصل قيصر إلى ثغر الاسكندرية فاتحا ، ولم تقبل كليوباتره أن تكون الملكة الذليلة، بل انتظرت حتى أرخى الليل سدوله . ثم ركبت مركباً أبحر بها .. وسار حيث يقيم قيصر على شاطىء البحر فى قصره وتفتقت، حيلتها عن أن تلف بلفائف ، من قماش ، ربط من أطرافه حتى يظن أنه هديه نفيسة مهداة إلى قيصر، وأذن للهدية بالدخول ، وما أن وضع الحمل من فوق أكتاف حامله ، حتى انتفضت منه فتاة باهرة . . هى كليوباترة . لقد خرجت كليوباترة بشعرها الذهبى وجمالها المصقول . وأسرت الفتاة ذات العشرين ربيعاً الرجل الكهل الذى دوخ الفاتحين وكنت لإسمه ألمع صفحة فى تاريخ الحرب ، وتسلط الجمـــال على البطل الفاتح . ونسى غزواته وفتوحه .

وقد وصفها بلوتارك فى هذه اللحظات فقال « .. كانت كليوباتره نصف عارية ، كانت عيناها تلمعان ببريق خاطف كأنهما زمردتان تحت أهدابهما الطويلة وأجفانهما المكحلة وكان شعرها الأسود المرصع بالمشابك الذهبية مرخى على كتفيها فى انسياب يذكر بماء الشلال . وكانت كليوباترة تغطى نهديها وكتفيها وذراعيها بغلالة رقيقة وتضع حول عنقها طوقا من الأسماك الذهبية وفى قدميها خفين من الجلد الأبيض عليهما

نقوش شرقية ، ولم يكن مال الدنيا بأسرها ، وجميع الانتصارات التى نالها قيصر لتساوى عنده هذه الهدية التى ساقها القدر إليه . لقد كان التعب قد حل به فى المعارك التى خاضها . وكان فى ذلك الوقت فى الرابعة والخمسين من عمره . وهناك تحت قدميه كان يرقد الشباب الغض والجمال الفتان .

ولم يلبث أثر الصاعقة أن ظهر على قيصر الذى غلب على أمره . وأخذت كليوباتره تحدثه بصوتها الغرد السيال الذى اجتازت موسيقاه الدهور حتى وصل رجعها إلينا ، وكان طبيعيا أن تحدد كليوباترة مستقبل البطل ، وأن تصبح كل شىء عنده ، وبعث إليه أنصاره فى روما يطلبون إليه العودة ، ولكنه أصم أذنيه عن ندائهم ، بالرغم من الخطر الذى كان يتزايد بتألب خصومه ، وكان هناك من الخطر ما يخشى على هذا الملك الذى وصل إليه « قيصر » بحد السيف ، وبعد كفاح رهيب وحروب طويلة تعرض فيها للأهوال .

ولكن كل ذلك غدا حقيراً تافها فى نظره بجوار العاطفة الضخمة التى منحته إياها كليوباترة ولكنها كانت قلقة من النتائج التى قد تترتب على بقاء قيصر عندها ، وهى لم تحبه لشخصه وإنما أحبته لما وراءه من مجد ولما يمكن أن يؤدى إلى حبهما مجد جديد تضيفـــه إلى تاجها ، كان أملها أن تكون لها إمبراطورية كأمبراطورية الإسكندر ، والجلوس مع قيصر على عرشها . وسيطرت كليوباترة على قيصر سيطرة فعلية رهيبة .. ولكنه أوشك أن يفقد كل شىء ، باستلامه إلى جمالها وحبها وإلى ذلك الجو الناعم المصقول الذى هيأته له فى الأسكندرية وفى مواكب الرحلات على صفحة النيل . وبين الراقصات والقيـــان والمنشدين والملحنين والموسيقى والخمر ، والعطر والند والطيب .

وقد قصدت كليوباتره بإبراز هذا الجو المشبع بالترف والبذخ أن تكسب ثقة قيصر الذى بدأ يفكر جيداً فى الزواج بها وتتويجها على عرش روما . وكأنما قتل الحب فى نفس قيصر البطل المحارب روح الكفاح والصراع ، وأصبح يخاف النار ويخشى الحرب ، وعز عليه أن يستبدل هذه الحياة الناعمة بذلك الجو المشبع بدوى المدافع ورائحة الرصاص وأخيراً عاد قيصر إلى روما ، وقلبه يخفق ويفيض بالحب . وأراد أن يكسب لنفسه مجداً جديداً ينسى به الشعب مباذله ، فضرب عدة ضربات موفقة فى آسيا الصغرى وأفريقيا وبلاد الغال .

ولم يلبث المحب المدله . أن أنشأ معبداً خصصه لعبادة الآلهة الزهرة « فينـــوس » ونحت تمثالا من المرمر للآلهـة الجميلة ، وكان التمثـال هو كليوباتره .

وكان لذلك أسوأ وقع فى نظر الشعب الذى يعرف سيرة الملكة الماضية التى فرض قيصر على شعبه أن يركع لها فى المعبد كالآلهة .

وأرسل قيصر يطلب كليوباتره . التى استقبلت فى عاصمة الدوله الرومانية استقبالا رائعاً يجل عن الوصف . ودخلت البلاد فى موكب فاخر ولون قيصر روما بالروح المصرية . مسلات وتماثيل وروائح شرقيه وموسيقى من مصر

وانساق قيصر لهواه ، فى عنف ونسى كل شىء ، زوجته وبلاده ، وغدا الفاتح الذى ملأ اسمه الدنيا مستبداً طاغية نتيجة لهذا الهوى العاصف.

وأراد القيصر العجوز أن يبلغ فى نظر حبيبته أبعد ما هنالك من الغرور والكبرياء فأعاد أحفال القتال التى كان يتلهى بها الأباطرة الرومانيين

القدماء . وتأجج غضب الشعب حين أقام معارك بحرية بين السفن البحرية يفنى فيها فريق من المواطنين . وقال الشعب ما بال هذا الدم الرومانى يهدر لتسلية امرأة شرقية .

وأحس بروتس وأعوانه أن قيصر مقدم على أن يتوج كليوباترة على عرش روما فأسرع بإنفاذ عزمته بأن طعنه فى مجلس الشيوخ .

وعادت كليوباترة إلى مصر ولم تحقق أملها فى المجد الذى كانت تحلم به .

وحاولت كليوباترة أن تحقق أملها مع فاتح آخر جاء مصر هو أنطونيو . ووقع الشاب المقتحم فى نفس الشرك ، وأنسته غزواته وخدعته بالجمال والترف ، ونسى أنطونيو بلاده وبدد ثروته ، فلما هزم وتحطم أسطوله بدأت تفكر . . فى أن تكرر نفس المسرحية مع القادم الجديد

ودخل أوكتاف الأسكندرية منتصراً ظافراً ، وكان همه أن يحمل كليوباترة إلى روما ليعرضها عرض السبى فى موكب انتصاره ليرضى شهوة انتقامه ويذل ملكة مصر وحبيبة انطونيو وحاولت كليوباترة أن تخدعه كما خدعت قيصر وأنطونيو من قبل . ولكن قلب أوكتاف لم يكن من تلك القلوب التى تخر صريعة أمام الجمال ، ولم يكن سحر المرأة يستطيع أن يرده عن غايته فى الفتح وكانت كليوباترة قد أعدت عدتها لذلك اليوم . كانت سلة الفاكهة قريبة منها وفيها ثعبانها السام ..

ولما رأت أنها لن تستطيع أن تكسبه قدمت نفسها إلى الموت على هذا الأسلوب العجيب ، أمسكت الثعبان ووضعت فمه على ثديها . ولم تلبث أن أصبحت جثة هامدة .

بين الـكفر والايمان

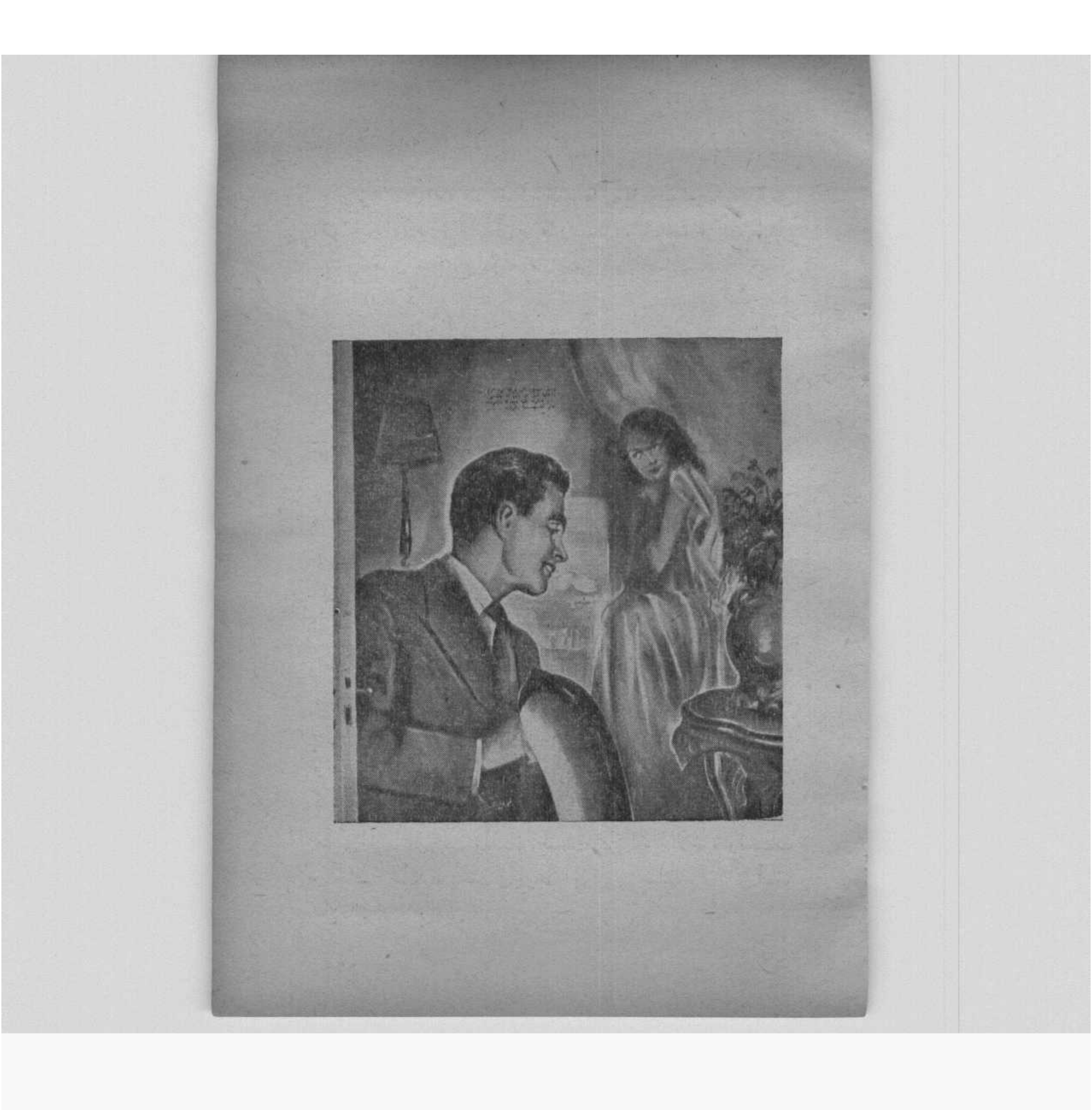
تاييس

نبيا هو فى صلواته وعباداته ، وقد مضت عليه سنوات طويلة منذ اعتزال الحياة ، فى كوخه الصغير ، القائم فى أعماق الصحراء ... لمعت فى ذهنه صورة .. ارتجف لها كيانه النحيل .. هى صورة الراقصة «تاييس» التى عرفها فى مطلع الصبا .. يوم كان يعيش حياة المجون والحب واللهو..

وتألقت فى ذهنه هذه الصورة ، صورة الغانية البارعة الجمال التى تهافت عليها القلوب ، والتى عجز عن إغوائها .. وأحس بالحرمان ، وقد استفاقت فى نفسه معانى اللذة مغلفة بالرغبة فى دفعها إلى التوبة .

ونام الراهب ليله ولـكن القمص لم يقترب منه ، لماذا عادت هذه الصورة إلى ذهنه بهذه القوة والتدفق ، وحاول الراهب أن يردها ، ولكنه عجز ، ومضت تتراءى له فى نومه ويقظته وفى صلواته وعباداته،وأخذت صورها تتوارد على خاطره عارية وراقصة ونائمة ، وألحت عليه حتى اضطرب أمره .

وحاول أن يجد لها من صلاته منقذاً فأخذ يدعو الله لها أن يتوب عليها ويغفر لها ، ولـكن الدعاء لم يذهب عنه الحنين الذى اندلع فجأة فى أعماقه ، ومضت الرؤى تغمر نفسه بقوة .. فاندفع من وراء الوعى يحاول أن ينفذ إليها ، باسم الدعوة إلى التوبة .



وتوهمت فى ذهنه هذه الفكرة ظاهرها إنقاذ غانية الأسكندرية من تلك الحياة الآثمة ، وباطنها أن يراها ويسيطر عليها ، لقد عجز أن يسيطر عليها ويذلها فى صباه ، ولكنه الآن وهو الحبر الجليل يستطيع أن يحقق رغبته القديمة .

ومضى الراهب « بافنوس» إلى الأسكندرية مخلفاً الصحراء الموحشة يقطع الطريق الطويل ، وذهنه مملوء بهذه الراقصة الفاتنة الرائعة الجمال .

كانت هذه الراقصة قد بهرت أهل الأسكندرية وفتنتهم ، ومضت تعيش تلك الحياة الآثمة ، ترقص صدراً من الليل فى المسرح ، ثم تأوى إلى صحبة رفيق لتمضى معه بقية الليل وهى فى هـذا كله بين الخمر والعطر والحرير والجواهر ..

.. حياة طويلة منذ الصبا الباكر ، فقد نشأت فى بيئة فقيرة . كان أهلها أصحاب فندق على شاطىء البحر ، يستقبل البحارة والسائحين ورواد الليل ، وفى هذا الجو ترعرعت « تاييس » وانتهت تاييس إلى حيث يمضى بها الطريق : الرقص والصيد والمتهافتين على الجمال والحب ومضت تنتهب متع الحيـاة فى عنف ، وتعب من رحيق الشهوات فى نهم ، والتف حولها العشاق والمعجبين والراغبين ، حتى ضاقت بهذا اللون من الحياة ، ونفرت منه ، وبدأت ترى صورة الموت الرهيبة وهى فى أشد حالات نشوتها ..

واتجهت إلى كتب الفلسفة ، لتبحث عن الله والآخرة والحساب والعقاب ، كأنما قد دخلت فى مرحلة أخرى من حياتها . وكأنما أعانها على ذلك ارتفاع السن ...

وغلب القلق على نفسها ، وعاشت كالتائهة ، تحاول أن تكشف ما فى أعماقها ، وتسأل عن سر الحياة وازدوجت فى نفسها اللذة والخوف ، فكانت تقضى ليلها المضىء المليء بالترف والشهوات حتى إذا عادت إلى بيتها غلب عليها القلق والسهاد ، فمضت تقضى أيامها وحيدة فريدة تبكى.. وتستغفر فإذا أصبح الصباح وقفت أمام مرآتها ، ورأت جمالها ، اندفعت لتعب من متاع الحياة فى عنف .. كانت تحس بأن الحياة قصيرة ، وأن شبح الموت يقترب منها ، وكان ذلك يدفعها إلى أن تنتهب أكبر قدر ممكن من اللذة والمتاع .

وبينما هى فى هذه المعمعة تتنازعها العواصف من كل جانب ، وتتصارع فى أعماقها لذة الحياة وخوف الموت . وقف على بابها الراهب (بافنوس) الذى قطع الصحراء إليها ليهديها ويردها إلى الله .

ولما رآها ، تأججت فى نفسه تلك العاطفة المبهمة التى كانت تغمر قلبه ، ولكن كيف يبدو أمامها فى أهاب « رجل الله » .

وقال لها ، أنه يحبها على صورة أخرى ، أنه يحبها روحا وحقيقة ، يحبها فى الله . وسخرت منه تاييس ، ومضى الراهب يعظها ، ويكشف لها عن الموت ، والحياة الآخرة ، ويرسم لها تلك الصورة الرهيبة ، صورة الموت .. وهنا ثابت إليها نفسها ، وعاد شعورها الذى كان يغمرها بين آن وآن .. وبكت ..

وبدأ الراهب يرسم لها صورة مغرية لحياة الخلود بعد الموت ، ومعنى القداسة الذى ينطوى على التوبة بعد هذه الحياة الحافلة بالإثم .

.. وخرت راكعة أمام الراهب. وأسلمت أمرها إليه. لقد طلب إليها

أن تنفض يدها من حياتها كلها . » وقال لها أن هناك ديراً على مسيرة يوم من الأسكندرية ينتظرها . .

وأراد أن ينتقم من الماضى كله . الذى يتمثل فى أثاثها وزينتها ورياشها وثيابها وحليها . . لقد أمرها أن توقد فيه النار . فالتهمته التهاما ، ومضى ينظر إليه فى حقد عجيب .

ومضت تاييس إلى الدير مخلفة وراءها قلوباً هائمه أحبتها وسعدت بها . أولئك الشعراء والكتاب ورجال الفن .

وسار بها « بافنوس » فى الصحراء الموحشة لا يرحم عذابها ولا ظمأها ، ويحس التشفى فيها وهى تدمى قدميها من الصخر .

ووصلت تاييس إلى الدير . وكانت فعلا قد تطهرت

وعاد بافنوس إلى صومعته . . ولكن بأى نفس !

لقد أصبحت تاييس هى رؤية صلواته ، وأحلامه ، ويقظته ، لقد ملكت عليه حواسه ، وذلك الجمال الرائع الذى أذله، كان لا يزال يحس بالعاطفة الجارفة نحوها .

لم يكن هذا كله إلا صورة للنفس التى تريد أن تنتقم فى صورة الدعوة إلى الله والخير ، وبلغ به الأمر حداً لم يعد يحتمل معه البقاء ، فهجر صومعته إلى الصحراء ، واعتلى عاموداً مهجوراً وأقام فوقه ، وفتن الناس بهذا العابد الذى كان يقاسى فى أعماق نفسه لوعة وثورة .

. . وقدس الناس « بافنوس » فى الوقت الذى كان على وشك أن ينحرف عن طريق الله ، بعد أن امتلأ قلبه بالحب المحرم .

وما أن سمع نبوءة الأب « أنطونيو » بأن قديسة توشك أن تصعد إلى السماء حتى أحس بأنها تاييس . . وهنا انفجرت رغبته المكبوتة . . أن تاييس فى طريقها إلى الموت ، ولا بدأن يراها قبل أن تموت ، لينتهب اللذة التى لم ينعم بها ، حين أنقذها إلى سجن الرهبنة وأحس بالندم على حياته التى ضيعها دون أن تتمتع بالحياة .

ودخل الدير ، ورأى تاييس وهى على وشك أن تفارق الحياة ، ولكنه وقدكان المظنون أنه سيباركها لم يلبث أن قال لها :

« . . لا تموتى فأنا أحبك ، لا تموتى ، لقد خدعتك يا حبيبتى تاييس فما كنت إلا مأفونا بائسا ، واعلمى أنه ليس حقا سوى الحياة الدنيا والحب ، أحبك فلا تموتى . اسمعينى يا حبيبتى وقولى إنك ستحبيننى وتحبين الحياة . . »

ولكن تاييس كانت ترى السماء تنفتح وترى الملائكة ينادونها ، ونطقت بكلمتها الخالدة « وإنى أرى الله » وماتت ، وجن بافنوس وعانقها عناقا كله ثورة وحب وشهوة . .



الحب فى أروع صور التضحية

هلويز

أختاره الأب فولبير ليتولى تعليم ابنة أخيه « هلويز » فلما رآها فتنته روعة جمالها وقوامها ، وافتتنت هى بعلمه وشخصيته المركزة العميقة . كانت هى فى الثامنة عشرة تتطلع إلى البطولة فى عالم المثال . فلما رأته يخطب فى الجماهير الضخمة ويعمل فيها عمل السحر فيرفع من حماستها ثم ينيمها ثم يبكيها ويهزها من الأعماق تعلقت به .

ولم يلبثا أن وقعا فى شباك حب عنيف . كانت فترات الدروس فيه خلوات عاصفة بالعاطفة ولكن الأب فولبير فاجأه ذات يوم وهو يعانق هلويز فطرده من البيت . وكان يقيم ضيفا على القس . وقد وصف أبيلار هذه الفترات فى مذكراته فقال « الخلوة التى ينشرها الغرام تجد فى الدرس مبرراً لها وحجة . أن أحاديث الغرام والقبل المتبادلة تطغى على دروس الفلسفة والحكمة . كانت يداى تمتدان إلى أحضان هلويز أكثر مما تمتد إلى تلك الأسفار وفى ضرام عاطفتنا مررنا بكل مراحل الحب وألوانه » .

ولكن هل كان هذا هو خاتمة القصة . لقد ازداد حبهما عاصفة ، وظلا يلتقيا حتى كان لهما طفل. لقد ارتبطا بالقيود والتقاليد فهل أفلحا فى الخلاص منها .

طلب أبيلار من الأب فولبير أن يزوجه هلويز ، وسأله أن يجعل الزواج سراً مكتوما إذا لم يكن لمثله أن يتزوج علنا وهو فى درجة الكهنوتية ، ولكن فولبير رفض الفكرة وأحاط الفتاة بصور جديدة ومضى الغرام عنيفا عاصفاً بينهما ، فقد كان أبيلار قد حبس نفسه حتى هذا السن فى العمل الفكرى والملاطفة ، فلما خرج إلى الحياة انفجرت فى نفسه عوامل الجنس فى صورة قاسية ضارية ، لقد تحطمت فى نفسه كل الحواجز التى عاش من وراءها يكبت عاطفته ورغباته . .

وكان هلويز تراه عملاقا ضخما ، كانت تمتلىء نفسها إعجابا به ، ولذلك رفضت فكرة الاقتران به . فقد خشيت أن يحرم العالم المسيحى من أثمن حلية .

ولكن زواجهما تم سراً فى إحدى كنائس باريس المغمورة ثم افترقا . وظل الأمر سراً مكتوما عن فولبير الذى ضاقت به هلويز . ورأى أبيلار أن يحملها إلى دير الراهبات فى أرجنتوى حيث أنفقت شبابها الغض .

وكانا يلتقيان بين الحين والحين فى غفلة من الحراس . وهى لحظات قاسية كان كل منهما ينتظرها طويلا فإذا جاءت فى مثل هذه الأجواء كانت مرارتها أشد أثراً فى النفس من روعتها .. كان فيها الحرمان الماضى . . والحرمان الذى يبدأ بعد أن تنتهى . والضباب الكثيف الذى يحيط بمستقبل غامض . كان لقاؤهما يدفع إلى مزيد من المتاع . وكان غيابهما يضفى على حبهما روح الشوق . . وكان فولبير يزداد حقداً على أبيلار كلما برز إسمه وعلى نجمه ، لاعتداده بنفسه وكبريائه . وأزعجه أن تظل

هذه الزهرة اليانعة فى يده الخشنة . وهز فى نفسه أنه إذا إختطفها منه على هذه الصورة التى حطمت كرامته وتركت له السوء على ألسنة الجميع .

وانتهى فولبير إلى رأى فظيع وإنتقام مرير . فقد بعث ثلاثة تحت جنح الظلام حيث تسللوا إلى بيت ابيلار فقطعوا معالم رجولته .. وأفاق المحب العالم المتكبر على حقيقة رهيبة . إنه لم يمت . ولكن ما حدث كان أعظم من الموت . كيف يلقى هلويز . وكيف يكون أمر حبهما العاصف المدمر . .

وكتب أبيلار فى مذكراته يقول : « لقد كان حكم الله عادلا إذ أصابنى فى الموضع الذى زل وأخطأ . كم كان قصاص فولبير حقا . فقد كانت خيانته لى جزاء وفاقا على خيانتى له . .

وبدا المستقبل غامضاً مظلماً أمام أبيلار . وكان تفكيره فى لقاء هلويز عذاب هائل . وأعتكف فى أحد الأديرة يملأ نفسه الحزن والخزى وترهبت هلويز وأزمعت أن تعيش فى الدير إلى الأبد وعندما تلقت القناع الأسود فى الاحتفال الدينى الذى عقد لها . كانت تبكى .. ترى هل كان ذلك من أجل جرائمها الماضية . أم حزنا على شباب فات لا تعرف فيه لذات ومتع أخرى .

قصة تحرير الجنس

شهر زاد

كان شهريار قد أخرج خيامه وجماله وبغاله وخدمه وأعوانه طالبا الرحلة إلى بلاد أخيه فلما كان فى منتصف الليل تذكر حاجة نسيها فى قصره. فكر راجعاً على فرسه ودخل قصره فوجد زوجته فى فراشه مع عبد أسود.

تقول الرواية أنه لما رأى ذلك أسودت الدنيا فى وجهه وسل سيفه وقتل زوجه وعبده ثم غلبت على نفسه عاطفة شرسة مدمرة. عاطفة الانتقام من الجنس كله . فصار يتزوج كل ليلة فتاة عذراء ثم يقتلها فى الصباح .

ومضى على هذا النهج ثلاث سنوات حتى ضج الناس وهربوا بناتهن . ولم يبق فى المدينه من يجدها الوزير لتكون زوجة الملك . فأتجه إلى بيته غاضباً مهموما . وكانت له بنتان جميلتان « ذات حسن وبهاء وقد وأعتدال » تدعى كبراهن شهر زاد .

وكانت قد قرأت الكتب والتواريخ والقصص وسير الملوك والأساطير وأخبار الأمم الماضية حتى قيل أنها قرأت ألف كتاب .

فلما رأت أبوها مهموما. كانت قد ازمعت أمراً قالت : «مالك ياأبى صامتا؟» فلما لم يجبها قالت : «إننى عالمة بعلة همك .. ياأبى زوجنى شهريار فكاد الرجل أن يصعق لهول المفاجأة . ومضت تقول له: «بالله ياأبى زوجنى هذا الملك فأما أن أعيش وإما أكون فداء لبنات المسلمين وسببا لخلاصهن من خنجره المسموم ! »

وأذعن الوزير لأنه لم يجد فى هذه الليلة فتاة يقدمها للملك غير ابنته ـ وأوصت شهرزاد أختها بأن تلحق بها إذا ماتوجهت إلى قصر الملك .. وأن تطلب إليها أن تقص على الملك بعض القصص تقطع بهالسهرة حتى الصباح فلما أقبلت دنيا زاد أستأذنت الملك فى أن تروى أختها شهرزاد قصة من قصصها .. ورغب الملك فى أن يستمع .. ومضت شهرزاد تقص حتى طلع الفجر ..

وهناقالت: « إنأبقانى مولاى إلى الليلة المقبلة ولم يقتلنى أكملت له القصة .. وشاقته عقده القصة فأجل قتلها إلى الليلة القادمة » .

وتقول الرواية أن أباها الوزير الذى كان ينتظر بالكفن عاد به إلى منزله . .

فلما كانت الليلة التالية مكرت شهرزاد بالملك فأكملت قصتها ثم انتقلت إلى قصة أخرى . . فلما طلع الفجر كانت فى أدق أطرافها . فأجل الملك مقتلها حتى تتم القصة . . وهكذا خدعت الملك بالقصة عن نفسها ليلة بعد ليلة ، وفتحت له أفاقاً جديدة ، ولعب الخيال بعقل الملك . . . حين نقلته إلى عوالم غريبة فيها سحر وشياطين وأساطير وخرافات .

وكأنما كان طفلا كبيراً خدرته القصة ودفعت شهرزاد كل قواها وعبقريتها فى هذه المعركة . كانت معركة حياة أو موت بالنسبة لها ولبنات جنسها ، كانت أشبه بالعالم النفسى الذى يعالج مريضا شرساً . وأعانها على ذلك صوت حلو ذو نغم ، وجمال سمت . وحصيلة ضخمة من القصص والروايات كانت تتلاعب بها .

وكانت قصصها خلاصة تجارب الدنيا ، وأحداث الكون ، وجماع المآسى والأفراح والآلام والأهواء والعواطف التى مرت بالأجيال .

وردت القصة إلى شهر زاد قلبه فقد كان يظن أن مآساته هي كل شيء فأطلعته شهرزاد على مآسي أعجب وأغرب ، فتعزى وخفف من نفسه عوامل الحقد ، وبدأ يحس بالحياة . وتتفتح نفسه على العاطفة ، وعلى الرحمة والمحبة . . وأخذت عوامل القسوة والدم والأنانية تنطوى وبدأ رأيه يتغير فى المرأة والحياة .

وبقى اسم شهرزاد رمزاً على بطـــولة خالدة . بطولة فهم النفس الإنسانية فى الرجل الذى انحرف فاعطت أهواءه وعواطفه ذلك الشيء الذى كان ينقصه وكشفت عنه سحابة الغموض الذى لفها .

وضربت شهرزاد مثلا على قدرة المرأة على الاحتفاظ بالرجل ، والوصول إلى نفسه بقوة الشخصية والثقافة والذكاء .

لقد استولت شهرزاد على رجل مفترس فى أوج جنونه ، ففهمته واستدرجته وسيطرت على عواطفه ، وردته عن الدم ، وهذبت خلقه وأنشأت تصنع له دنيا جديدة كانت غريبة عنه . . وبذلك وقت بنات جنسها هذا الطغيان . وردت إلى النفوس هناءها بعد أن عاش الناس فى لوعة وأسى واضطراب لهذا المجنون الذى يسلب كل ليلة عذراء . . فلا يردها إلا إلى القبر .

ولا يحدثنا التاريخ عن شهرزاد بعد ذلك ماذا كان من أمرها بعد الليلة الواحدة بعد الألف . . ولكن قصص شهرزاد أصبحت دنيا كاملة من الحب والموسيقى والجمال .

وليست شهرزاد هى الأولى من نوعها فقد سبقتها « استير » المعروفة فى التوراة التى تطوعت لانقاذ بنات جنسها . وقصة حمى بنت بهمن فى الأساطير الفارسية القديمة .

العباسة

كانت رائعة الجمال بارعة اللحظ ، وكان يحبها هارون الرشيد ، حباً جعل زبيدة تغار منها حتى أنها كانت تنتظر الفرصة للانتقام منها ، وكان الرشيد يحب جعفر بن يحي ولا يمل من صحبته ، فكان يجمعهما في مجلسه ويأنس بهما .

ولكن « الرشيد » كان يرى أن الجمع بين صديقه وشقيقته يثير الناس ويحدث لغطا ولذلك فقد صمم على أمر ...

وفي ذات ليلة قال لجعفر بن يحي : ويحك ياجعفر . ليس في الأرض طلعة أنا بها آنس ، ولا إليها أميل . وأنا بها أشد استمتاعاً وأنساً مني برؤيتك ، وأن للعباسة أختي مني موقفاً ليس بدونه كذلك ، وقد نظرت في أمري معكما فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتني ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها ، وكذلك أمري في يوم كوني معك دونها وقد رأيت شيئا يجتمع لي به السرور وتتكاتف لي به المتعة ..

لقد زوجتكما تزويجاً تملك به مجالستها والنظر إليها والاجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه .

وأخذ الرشيد على جعفر عهد الله وميثاقه أنه لايخلو بها ، ولايجلس معها ، ولا يظله وإياها سقف بيت إلا وهو ثالثهما .

ولكن هذا اللقاء كانت له نتائجه الطبيعية ، فتاة فى مقتبل الشباب لها عاطفتها وشبابها وجمالها ، لاترى إلا هذا الوزير الجميل : جعفر وتستمع إلى حديثه مع أخوها ، لابد أن تعجب به وأنه يؤدى هذا اللقاء إلى الحب .. وفعلا اضطرم الحب فى قلبيهما عنيفاً قويا .. زاده عنفاً وقوة إحساسه وإحساسها بأن كل منهما زوج للآخر. ولكنه ممنوع عنه.

وكانت العاطفة تعمل فى نفس جعفر ولكنه يكبتها بعنف فهو يخاف الرشيد ويخاف عهوده ومواثيقه .. والعباسة هى الأخرى .. وقاوما طويلا ولكنه كان مأخوذاً بحسنها الفريد وسمتها الرائع ..

ولم يكن من الطبيعى أن تظل الأمور على هـــذه الصورة .. فقد أضمرت العباسة الإحتيال عليه وقصدت أمه . وأغرتها بأن تجمعها به فى ساعة شراب .

والتقيا سراً بعيداً عن أعين الرقباء . وتعدد اللقاء . فيه حرمان وفيه أسى . وفيه خوف وفيه إحساس بالغد الغامض المحير ..

وولدت العباسة صبياً جميلا . سرعان ما أرسلته إلى مكة ليكون بعيداً عن عين الحاكم الجبار وسمعه ولكن زبيدة كانت ترقب كل شىء بيقظة . وتتسقط الأخبار . وقد وصلت إليها القصة كاملة . فنقلتها إلى الرشيد ..

فلما سألها عما إذا كان أحد قد علم بخبرها قالت له أنه ما من جارية فى قصرك إلا وقد علمت به فأظهر أنه يريد الحج .. وخرج هو وجعفر . وفى مكة وكل الرشيد من يثق به فى البحث عن الطفل فوجده فأمر بقتله .

وعاد الرشيد من الحج وقد أنتوى بالبرامكة أمراً ...

وكان أمر البرامكة قد بلغ مداه : واتسع سلطانهم . وكثر حسادهم . ونقل إلى الرشيد الكثير مما أوغر صدره عليهم . فلما جاءت حادثة العباسة جعلته يقطع فى الأمر .

وذات ليلة وجعفر فى مجلس سمره يتحدث ويشرب ويسمع ويضحك دخل إليه مسرور يطلب إليه لقاء الخليفة . . وعرف جعفر أن الأمر قد انتهى .

وما أن وصل إلى قصر الرشيد حتى خلع مسرور رأسه عن جسده . وقدمها لسيده ولما اطمأن الرشيد إلى مقتل جعفر نزل إلى الطابق الأسفل حيث تعيش أخته العباسة وكان الوقت بعد منتصف الليل . فذعرت الجاريات لقدومه وتوجسن شراً .

وكان مسرور معه .

وناداها .. فأقبلت عليه بشجاعة . وحدثها فى الأمر فأجابته فى قوة وجرأة وقالت له أنه حرم ماأحله الله . وإنه فرق بينها وبين زوجها وإنه حرم ماأحله الله . وانها أحبته . ولم يكن من سبيل إلى أن تنفصل عنه وسمع الرشيد منها ولم يجب . بل أشار إلى مسرور الذى اسقط رأسها بين قدمى الرشيد .

وكانت العباسة جميلة ذكية مثقفه . أحل لها أن ترى إنسانا فأحبته ثم حرم عليها أن تلتقى به ولم يكن هذا طبيعا ولا مقبولا . ولكن الأمر كان أقسى وأشد مما كانت يتصور أو يتصور جعفر ، الذى كان يصرف كل شىء من أمور الأمبراطورية الضخمة دون الرشيد فإذا الرشيد يقره على كل تصرف .

ولكن دولة البرامكة كانت قد أوشكت أن تغرب . وكانت تصرفاتهم قد أفسدت نفس الرشيد وملأته بالحقد . وكان متردداً فى الأمر . هل يقضى عليهم أم يدعهم . فلما جاءت قصة العباسة وارتبطت فى نفسه بالكرامة والعرض والحمية رجحت كفه القضاء على البرامكة وقتل جعفر .

مدام بوفارى

إن قصة مدام بوفارى هى تجربة جوستاف فولبير الخاصة .. وهو فيها أشبه بديماس فى قصة الكاميليا .. كانت « إيما » فتاة طموحة النفس تتطلع إلى آفاق بعيدة . وكانت تتصور الحب نشوة هائله . وكان الخيال يرسم لها صوراً رائعه من حياة الحب حيث تذهب إلى آخر الدنيا وتصعد الجبال وكانت تحب المرح والفنون ..

فلما تزوجت إنهارت أحلامها فى شهر العسل . فقد كان زوجها رجل هادىء يحبها فى هدوء كان بوفارى لا يحب المرح ولا السباحة ولا لعب السيف ولا ركوب الخيل ..

فقدت فى الأيام الأولى لزواجها النشوة الهائلة التى كانت تفجر نفسها وبدأت أحلامها تنفصل عن محيط الزوج . وينمو بدلا منه نفوذ مكتوم . وكانت تقول لنفسها : « أما يجب على الرجل أن يعرف كل شىء . وإن يعلم المرأة الجرى وراء الأهواء ولذائذ الحياة .. وأن يجعل من حياتهما أسطورة فيها الخيال وفيها المفاجئة وفيها المغامرة ..

وفى الوقت الذى كانت هى تتعذب لهدوئه الآسن . كان هو يظن أنها سعيدة . كان حبه لها من ذلك النوع الراكد وكان فى حدود طبيعة يحاول أن يملأ نفسها بالحب . ولكنها كانت تتطلع إلى حب عاصف مجنون هادر يعطى ذلك الفراغ القائم فى أعماقها .

. .. وحاولت أن تثيره وأن تدفعه إلى الحب والحركة .. ولكنها أخفقت.

فانطوت على نفسها تعكف على قراءة بلزاك وجورج ساند . وتبحث في الكتب والقصص عن الإرضاء الخيالي لإهوائها ..

وبدأت تحس أن حياتها مملة جوفاء . ..

ومضت تتطلع في الأفق تتوقع حادثا في حياتها . وطال انتظارها ولكنها ظلت تترقب كل صباح ذلك الوافد الجديد ومضت يومها كله تنتظر فإذا جاء المساء توقعت أن يكون في صباح اليوم التالي ..

... ومن خلال هذه الأحلام والأوهام أطل عليها « ليون » .. كانت قد انتقلت إلى البلدة الجديدة ، وهناك التقيا به ومن خلال الحديث حول الموقد .. تكشف لها أن افكاره تتفق مع إفكارها ، فهو يحب الطبيعة والموسيقى والبحر ، ويلعب الجولف ويركب الخيل .

وأحب كل منهما الآخر دون أن يقول له .. هذه الكلمة صراحة ، ولكنه يحس بأنها لا تريده فيذهب ...

وتتفتح الآفاق أمامها عن حب جديد في شخص « رودولف » ..

وهنا تبدأ حياة أخرى من الحب القوي المتوثب الجارف ، تندفع فيه المرأة إلى حد التهور .. وأعطته مفتاح الحديقة احتى فكان يلتقيان طرفا من النهار أو من الليل وعاشا حيـــاة رائعة ، الحديث الناعم ، والعاطفة السامية ..

وكانا حبيبها يملك ثروة من التجربة في محيط المرأة .. وانتهى أمرها بأن قررت الفرار مع عشيقها فلما أخبرته بعزمها أخذ يسوف ويؤجل.

وفى الموعد المحدد بعث إليها يقول أنه لن يطاوعها على فكرتها وكان قد ذهب بعيداً .. « أننى أعاقب نفسى بالنفى للضرر الذى سببته لك . سأذهب بعيداً ... ، لا أدرى أين ، لا تنسى الرجل البائس الذى تسبب فى شقائك .

وعلمى إبنتك إسمى حتى تذكره فى صلواتها ، وحين تقرأين هذه السطور البائسة أكون بعيداً ، إذ يجب أن أتجنب الإغراء حتى لا اراك ثانية ، كونى شجاعة ، سأعود ، ربما نستطيع بعد أن نتحدث بهدوء عن حبنا الأول . وداعا »

ولما فوجئت بالخطاب أغمى عليها ، ولم تزايل فراشها طويلا .

ولما تحسنت صحتها غلب عليها طابع الزهد ...

وعاد إليها « ليون » صديقها الأول فمضت تستأنف معه حياة مستهترة عنيفة ، ولم تبال خلالها بذلك الزوج المحب الطيب الهادىء ، وتراكمت عليها الديون ، وحاولت أن تسددها فلم تستطع ولجأت إلى كل أصدقائها الذين أمضوا معها أياماً سعيدة فلم ينقذها أحد فاضطرت إلى أن تسرق سما من الأجزخانة وتنتحر به .

ولم يعرف زوجها إلا بعد أن تمكن منها السم .. وحاول الأطباء إنقاذها فعجزوا .. وعجب زوجها أن تفعل ذلك . وكان يظن أنها سعيدة.

وفى آخر لحظاتها قالت له أنها أحبته أكثر من أى لحظة خلت . . وأحضروا لها طفلها ، وأسلمت روحها وهما بين يديها ..

أما هو فظل يحبها على الموت ، كان يذهب إلى قبرها ، فيقضى اليوم كله إلى جوارها ، وعندما اضطر إلى بيع أثاث المنزل ليسدد الديون ،

إستبق غرفتها فلم يمسها . ولما فتح درجها السرى الخاص وجد خطابات حبيبها ليون ورودولف.

... وكانت مفاجأة مذهلة له .. فقد هوى إلى الأرض . وتحطمت أعصابه . وسجن نفسه فى المنزل لايخرج . وعاش فى ثيابه الرثة . وكان فى الغروب يخرج إلى المقـــبرة مع ابنته فلا يعودان إلا بعد هزيع من الليل .

وعندما التقى بوفارى الطبيب الطيب .. بغريمه « رودلف » لم يزد على أن قال له :

إننى لا أحمل لك حقـداً .. وكانت غلطة القـــدر

شجرة الدر

بين الحب والملك

ليست شجرة الدر إلا جارية تركية أرمينية اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق فكانت واحدة من ألوف الجوارى اللاتى كانت تغص بهن قصور الخلفاء .

ولكن شجرة الدر تميزت عن هؤلاء جميعاً بالذكاء والجمال وبالشخصيه البارعة التى أتاحت لها أن تترك هذا الحريم الضخم ، لتكون المحظية الأولى عند الرجل الذى عرف لها مكانها فاعتقها وأصبحت تسمى أم خليل ، والتى عاشت معه فى سجنه عند ما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك خلال سبعة شهور كاملة . وجاءت معه إلى مصر عندما استولى عليها ودخل قلعة الجبل وكانت فى نحو الرابعة والثلاثون من العمر .

وكما شاطرته أيام المحنة فى الكرك حفظ لها الود فى مصر وجعلها السيدة الأولى فى قصره وقد ظلت شجرة الدر تعاون الملك الصالح فى تدبير الملك بذكاء واضح ورأى سديد وقد عرف عنها الدهاء وحسن تصريف الأمور والثقافة والبراعة . ووصفت بأنها شخصية قوية وافرة الهيبة تميل إلى التدين وعمل الخير .

ولقد أتاح حب الملك الصالح لها أن يندفع قوياً فى الفتح فاستطاع أن يستولى على دمشق وعسقلان كما انتزع الكرك من صاحبها الناهر وهزم الصليبيين فى عدة مواقع ، وزحف بجنـــده إلى بيت المقدس فأحرق الأحياء التى سلمت للافرنجيـة فى أيام الملك العامل وأنشأ فرق المماليك البحرية وبنى لها جزيرة الروضة على مقربة من المقياس .

ولكن الملك الصالح لم يلبث أن اعتراه المرض وأوشك على الموت والموقف غايه فى الدقه ، تورنشاه ابن الملك الصالح فى دمشق ، والصليبيين يزحفون على دمياط ، وقد ساروا إلى مصر فى أعظم حملة صليبية ، هى الحملة السـابعة بقيادة لويس التاسع عشر ملك فرنسا ، وبينما كان الملك يقاسى آلام المرض أنفذ لويس كتابه إليه ينذره بالخضوع والتسليم فتحامل على كتـابة الرد وهو حزين تملأ عيناه الدموع يرد به الوعيد وهو ينظر إلى شجرة الدر .

وظل الملك الصالح ستة شهور يعانى أوصاب المرض ويسير إلى الموت بخطى بطيئة والمناوشات مستمرة سجالا بين المصريين والأفرنج .

ومات الملك صالح والموقف غاية فى الدقة فى الوقت الذى كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها فى قلب المعسكر تشرف على تدبير الشئون وانفاذ الأوامر ، فأمرت بأن يكتم الخبر وأن تستمر الأمور تجرى كما هى ، وتخرج الأوامر مختومة بخاتمه ، وكأنما كانت قد أعدت كل شيء ولم تؤخذ بوفاة الملك ولم تضطرب ، وكأنما قد أتخذت الأهبـة لـكل احتمال ، كانت تعرف بذكائها الوقاد وعقليتها الراجحة أن خبر وفاة الملك سيمزق وحدة الجيش وآلامه فى أشد أوقات الغزو الصليبى الغاشم ،

وهنا تبدو عبقرية شجرة الدر

ما كاد الملك الصالح يسلم النفس حتى استدعت الأمير فخر الدين ومحسن الطوشى وهما موضع ثقتها فأوصتهما بكتمان الخبر . واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر تورنشاه .

وأخذت شجرة الدر العهد على كل من وقف على موت السلطان . ووضع الجثمان فى تابوت وسير تحت جنح الظلام إلى الروضة حيث دفن بها سراً .

وبقيت الأوامر السلطانية كما هى . والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة وشجرة الدر تقول لهم إن السلطان مريض ما يصل إليه أحد . وكان السماط السلطانى يمد فى مواعيده كأنما السلطان حى والأوامر والبلاغات تخرج كل يوم ممهورة بإمضائه .

واستطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها الحربية ببراعة تثير الإعجاب .

وغداة وفاة السلطان استدعت العسكر وقالت لهم إن السلطان قد رسم بأن يحلفوا له ولإبنه المعظم تورنشاه أن يكون سلطانا من بعده وللأمير فخر الدين أن يقوم بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة فصدع الجند بالأمر بإعتبار أن السلطان ما يزال حيا .

وحلف أكابر الدولة ومقدمى الجند فى القاهرة ودعى للأمير تورنشاه فى المساجد بعد الدعاء لأبيه .

وظلت تدير أمور الجيش وأمور المملكة حتى قدم السلطان الجديد تورنشاه الذى وصل بعد ثلاث شهور لم تفقد شجرة الدر فيها ثباتها لحظة واحدة وقد حالفها التوفيق وأدت مهمتها الفادحة بنجاح حتى سلمتها للأمير تورنشاه وأعلنت وفاة الملك .

ثم أتيح لشجرة الدر بعد أن تلى الملك وكان ذلك أمراً جديداً فى

تاريخ المملكة الإسلامية ولكنها أحست بعد أن وليت الملك بضعفها كامرأة ورأت أن تتزوج من الأمير عز الدين بن أيبك ولم ترض هذه الخطوة الأمراء الناقمين فعزلت نفسها عن العرش على أن يتولاه عز الدين بن أيبك الذى أطلق عليه « الملك المعز »

وكانت جملة ملكها ثمانون يوما :

وبالرغم من أنها تركت الملك فقد ظلت وراء الملك الذى كان يخشى هذه المرأة القوية التى رفعته إلى العرش وكان يذعن لأمرها ووحيها .

وكانت شجرة الدر قد بلغت الخمسين من العمر . ولم تنجب ، وبدأت تعيش كامرأة تضطرب فى نفسها نوازع الحياة النفسية وصراع الأمومة المفقودة . فأرغمت الملك المعز على طلاق زوجته الأولى وأم أولاده ومنعته من زيارتها .

ولم تلبث الوحشة أن وقفت بينهما . فآلى على نفسه أن يخطب ابنة صاحب الموصل .. ولكن شجرة الدر كانت يقظى ســاهرة ترقب حركاته .

فلما علمت بالخبر أرادت أن تتخلص منه . وفهم هو ما تدبره له . وفهمت هى . وكان كل منهما يدبر . ولكن دهاء المرأة كان أحد سلاحا وامضى مقتلا .

فأرسلت إليه تستحلفه الصفح وتدعوه متلطفة إلى الصلح وتؤكد له الولاء . وتعده بليالى هانئة ومازالت تجذبه إليها مذكرة إياه بالأيام السوالف حتى حن إليها وذهب لدعوتها . واستقبلته فى حفاوة وأعدت له كل ما كان يطمح إليه عندها من ملذات .

أما هو فلم يأخذ نفسه بالحيطة ولم يعمل حسابا للخدعة الكبرى التى

أوشك أن يتردى فيها وكانت قد رتبت خمسة من الغلمان الأشداء لإغتياله فما ان ذهب ليغتسل ويخلع ثيابه حتى انقضوا علية حتى قتلوه .

ولكنها حين قدرت نهايته لم تقدر أن نهايتها كانت وشيكة فقد اعتقلها المماليك بالبرج الأحمر أياما . ثم نفذ إليهـــا بعضهم بأمر الملك المنصور وقبضوا عليها وحملوها إلى أم الملك المنصور فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق ... حيث ظلت نهشا للغربان والسائمة .

الزباء

كانت بارعة الجمال ، طويلة القامة ، قوية البنية ، منحتها الطبيعة سحر الجمال الأغريق وفتنة الجمال الشرق ، إلى شجاعة وجرأة فقد كانت لا تعرف الخوف ولا تتردد أمام الصعاب ، وهى فارسة لا يشق لها غبار عظيمة الجلد ، طموحة . تحسن قيادة الجيوش والقتال بالسيف والرمح وقد عاشت سنوات حكمها غازية محاربة . استطاعت أن تنتزع من الرومان والفرس جميع المدن الكبرى فى سوريا .

وقد انفردت بالملك بعد وفاة زوجها فعاشت حياتها مشوقة إلى الحب تتراءى لها فى مخيلتها صورة جدتها كليوباتره .

وقد أحبت الشاب المصرى بياجن الذى زارها فنزلت معه إلى الماء فى زورق وأمضت معه لحظات أحست بشبابه وجماله ، ولكنها ردت نفسها إلى طبيعتها الحريصة . طبيعة الملك وحاولت أن تضفى على حديثها مظهرها روح الجد .

كانت تفهم الحياة كما فهمتها إيزيس وكليوباتره وأفروديت ، كان فى نفسها ذلك الصراع بين الحب والملك . وكان فى أعماقها بعد هذه الحروب الطويلة شوق عاصف إلى أن تقرع فى الحياة مغامرة أخرى .

وكانت لا تريد أن تعطى عاطفتها لمن يعملون معها . ولذلك أحبت هذا المصرى الغريب وحرصت على أن يعدد زياراته . وكانت تحس

بالأمان إلى جواره . . فالمرأة مهما حاربت وغزت وتولت الملك تشعر بذلك النقص الخالد ، والإحساس بالحاجة إلى الرجل الذى يقف إلى جوارها ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك والذين من حولها يحنون رءوسهم لها كمعبودة . وهى تسخر أشد السخرية من هذا الأسلوب وتريد الرجل الذى يملأ نفسها والذى يواجهها ويعارضها ويقودها . .

إنها قد زهدت فى الملك والإنحناء . وفى أشد الحاجة إلى الرجل الذى تنحنى له ..

إن قلبها هو قلب المرأة ولو أخفته طويلا وراء ذلك المظهر المتجهم..

أن هذه الحروب التى تقودها ماهى إلا صرخات نفس شوقة إلى العاطفة تريد أن تملأ الفراغ النفسى . وهى مهما حاولت تجد نفسها فى حاجة إلى الرجل . ونزلت إلى الماء ذات أصيل . ونظرت فى صورة جسمها وهو فى رونق الشباب فأصابها الحزن على هذا الشباب الذى يذهب محترقا دون أن يجد متاعه .. ماقيمة الملك والمجد والإنتصار إذا لم يكن وراء ذلك كله حب وعاطفة ..

ولكن الزمن لم يمهلها لتحقيق كل أمالها فقد دخل أورليانوس تدمر وحاصرها من جميع الجهات وقرر أسر زينوبيا التى كانت مستعدة للهرب لتلحق بصاحبها المصرى الذى أحبته من كل قلبها .. ولكن الرومان استطاعوا اللحاق بها وأعتقالها وهى منطلقة فى الصحراء متخفية فى زى بدوية خاملة.

وثار أهل تدمر عندما أعتقلت فأنتقم منهم أورليانوس على صورة بشعة إذ أمر جيشه بتخريب تدمر ودك أسوارها وهيا كلها ومعابدها . وإضرام النار فيها وذبح سكانها ..

أما زينوبيا فقد حملها القائد الرومانى إلى بلاده حيث سارت على قدميها خلف موكب الفاتح بعد أن قيدها بسلاسل من ذهب ..

سميراميس

بين الملك والحرمان

كم يحيط الغموض حياة هاته الطائفة من النساء ، إنها مجموعة من نساء الشرق صاغ الحب حياتها وكان بعيد الأثر فى توجيه منازعها .

كانت سميراميس فارسة حكمت إمبراطورية نينوس العظيمة ولم ير قبلها أشورى البحر الكبير ولكنها أبصرت بعينها أربعة بحار أعترفت شواطئها بسلطانها ، وأكرهت الأنهار العظيمة على أن تصب طبق إرادتها ، وسيرت ماءها لإخصاب الأراضى التى كانت قبلها قاحلة بغير سكان وأقامت البروج المنيعة ومهدت طرقا لم يكن يرتادها من قبل إلا وحش الغاب ، وفى وسط هذه الأعمال العظيمة وجدت مجالا لسرورها ولهوها وحبها .

تزوجها تبنوس فعادت معه إلى المدينة ذات الأسوار السبعة وقدم لها الكهان فروض الطاعة . ووضعت فى منطقتها الحجر السحرى الذى يقره من الجنون .

ولكنها لم تلبث أن راودها حلم أن تحكم وحدها ، يجب أن تكون الملكة الحاكمة بأمرها ، ولذلك يجب أن يختفى تبنوس ، وفى صباح أحد الأيام وجد تبنوس فى فراشه جثة هامدة وقد مات ميتة لم يجرؤ أحد على البحث عن سرها .

وكرهت سميراميس القصور ، وعزفت عن الكهانة وقادت جنودها في ميادين القتال . فأخضعت فارس وأرمينيا وبلاد العرب ومصر وليبيا والحبشة وكانت قد تعلمت قراءة النجوم في شبابها فكانت تعتمد عليها .

وأنشأت في مدينة بابل الهياكل والقصور . وأقامت على ساحل المدينه هيكلا لآله الاشوريين وأقامت عليه تمثالا ذهبيا طوله أربعون قدماً فاق في ارتفاعه الهرم الأكبر ، وكان يتألف من أبراج بعضها فوق بعض وأنشأت الحدائق المعلقة .

ولما هاجم الثوار مدينة نينوى ودقوا أبوابها ووصلوا إلى قصر سميراميس قامت عن مرآتها حيث كانت تتزين وبدت لهم مجردة من ثيابها فأخذوا بجمالها وسحرها فارتدوا عنها ، وأمكنها بعد إخضاعهم ثم أنزلت بهم ما يستحقونه من عقاب .

ولبست قلنسوتها وقوسها ونشابها وركبت مركبتها تقودها بيد وتمسك قوسها بالأخرى . . وكان ذلك علامة النصر .

وكانت في حياتها الخاصة محبة للمغامرات العاطفيه العاصفة . إذ كانت تملك في أسفل حدائقها المعلقة حديقة سرية تهفو إليها مع الليل ، وكانت تودى بحياة أولئك الذين يشاء حظهم العاثر أن يقعوا في حبائلها أو تعجب بهم .

وكانت تغنى لها أغنية تحبها منها هذه الأبيات .

سوف يدوى أسمك في أذن الأجيال القادمة .

سوف يتواعد الترف والمرح واللذة على التلاقى في ميادينك وسوف تضىء حراقاتك الشاسعة عمالقة هائلة من الذهب .

بين الحب والفداء

سيرانو

كان سيرانو قد رزق رقة العاطفة وشجاعة القلب وعلو النفس . ولكن القدر .. رزاه بأنف عظيم شوه طلعته وجعله عرضة للتنادر والسخرية ..

ومن هنا وقع فى أزمة نفسية حادة فهو خطيب وفارس .. وقد أحب « روكسان » إلى العبادة . ولكن أنفه كانت تحول بينه وبين الجرأة على مفاتحتها بعاطفته ومضى يكتم هذا الحب فى نفسه شهوراً وسنوات .. ويتعذب بهذا الحرمان والكتمان ولا يدرى كيف السبيل إلى هواه ...

أما هى فقد أحبت الفتى الجميل كرستيان . الذى كان عاجزا عن أن يخاطب روكسان بإحساسه . فأشفق سيرانو على الفتى وتحولت غريزة الأنانية فيه إلى لون عجيب من التضحية . فكان هو لسان الفتى وبيانه إلى روكسان يدفعه إلى هذا حرصه على سعادتها . فيكتب له الرسائل التى يرسلها كرستيان إلى الفتاة فتدهش لعاطفته المتدفقة : وحبه الحاد ...

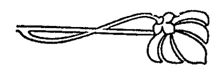
ولكن لا يلبث كرستيان أن يلقى مصرعه فى إحدى المعارك .. فى حصار (آراس) الذى اشترك فيه مع مئتان على رأسهم سيرانو . فتعتزل روكسان فى الدير ويظل سيرانو يتردد عليها زائراً .

ويقبل عليها ذات مساء . وهو يتحامل على نفسه مخفيا عنها الجرح

الذى أصابه فى رأسه فتلق إليه آخر رسائل كرستيان .. فإذا سيرانو يقرؤها فى الغبش دون حاجة إلى مصبـــاح . ويلقيها فى نبرة بلغت من التأثر غايته ثم يزيد عتم المساء وهو ماض فى التلاوة فتحين من روكسان التفاتة إليه . فإذا الرسالة مطوية وإذا هو يؤدى مافيها عن ظهر قلب ..

وهنا تدرك روكسان حقيقة مفزعة عجيبة . ظلت غائبة عنها طوال هذه الأعوام .. هى أن سيرانو هو ناظم هذه الرسائل الحارة الصادقة . وصاحب هذه العواطف النبيلة ..

ولكن متى.. .. فى نفس اللحظات التى يكون الجهد قد نال منه منالا فيموت بين يديها. ..



قصة المرأة المحاربة

جان دراك ـ تروانى

هى فتاة فلاحة من قرية « دومريمى » سمعت صوتا يناديها ويخرجها من صمتها . . قال لها الصوت : « كونى فتاة صالحة يا جان واكثرى من ترددك على الكنيسة وكان عمرها اثنى عشر عاما عندما تراءت لها صورة الملاك ميكائيل » . .

وقال لها : « لقد آن الأوان أن تهاجرى من قريتك وأن تعاونى فرنسا على النهوض من كبوتها » وآمنت جان بأن الله قد اختارها لانقاذ بلادها من الغزاة الإنجليز .

لقد ولدت جان دراك . . تحت جدران الكنيسة . وكانت أمها تهدهدها على صوت أجراسها وأرضعتها منذ صغرها الأساطير فكانت تعرف مجموعة منها ، لعلها هى التى أدخلت فى روعها ما خيل إليها من صور الملائكة . . حتى أنها كانت تنظر إلى قمة جبال « الفوج » وهى ترتفع بقمتها إلى السماء وتتمنى لو تعرج إلى السماء وفى ذلك الوقت كان الإنجليز يجتاحون بلادها و يغزوها فى أسلوب غاشم من النهب والحرق . وقد هربت جان مع أهلها من وجه الغزاة فلما عادوا وجدوا قريتهم منهوبة وقد فقدوا كل شىء . .

وكانت هناك نبوءة ذائعة أن فتاة صغيرة عذراء سوف تصبح منقذة

فرنسا . وقد أنبأها الساحر بذلك مرتين . وقالت أمها أن فرنسا عزيزة على القديسين .

وظنت جان أنها هى الفتاة العذراء . .

وعاد إليها الملاك ميكائيل مرة أخرى وقال لها : « يجب » أن تغادرى أهلك ودارك وأحبابك وأن ترحلى لتكونى فى خدمة مليكك . .

واشترى لها الناس حصانا وملابس جندى وأعد لها حرسا من الرجال المسلحين وأهدى لها سيفا . . ومضت وهى فى سن السابع عشرة مصحوبة بحرسها من الرجال . . لتؤدى مهمتها التى ألقاها على أكتافها الصغيرين الملاك ميخائيل .

وقالت أنها ستشفى فرنسا من جراحها وآلامها . . وتخلص مدينة أورليانس من الغاصبين وستقود ولى العهد إلى مدينه ريمس فتمسحه بالزيت المقدس .

واندفعت تقود جيشا ممن تجمعوا تحت رايتها بلغ قوامه ثمانية آلاف جندى . تركب فرساً أسوداً وترفع فى يدها علما أبيضاً قد رسمت عليه صورة الملائكة والقديسين ووجهت خطابا للإنجليز باخلاء أورليانس ثم دخلت معهم معركة انتصرت فيها انتصاراً حاسماً . . وجرحت جان دارك فى هذه المعركة . .

كانت تأكل كسرة خبز مغموسة فى نبيذ خالطه الماء ، وفى هذه الأثناء زاد الجيش إلى اثنى عشر ألفاً :

وتلقى الناس نبأ انتصارها بدهشة واعجاب وقالوا : « أنها قديسة أو ساحرة وقالت جان أن أيامها أصبحت معدودة . . »

وذهبت إلى ولى العهد وقالت له اذهب إلى مدينة ريمس حيث تتوج .

وسارت إلى ريمس وقد فر أمامها الجيش الإنجليزى ، ودخل الجيش مدينة ريمس وتوج شارل السابع ملكا فى الكنيسة :

وأرادت أن تنهى أمرها عند هذا الحد وتمنت لو أن تأذن لها السماء بأن تعود راعية ، غير أن الأصوات السماوية أنبأتها بأن تكمل ما بدأته وأن تحمل صليبها ، وأن تطرد الإنجليز طرداً نهائياً من أرض فرنسا .

وقادت جان جنودها مرة أخرى بعد أن حرمت عليهم أعمال السلب .

وفى ذلك الوقت كان رجال الدين قد وقفوا فى وجهها ، وقالوا عليها أنها مجدفة . ورغب الإنجليز فى القضاء عليها . واتمرت بها عصابات الطامعين فى الملك وحلفاء الاستعمار ولم تمهلها الأقدار . . .

فقد وقعت فى الفخ فى معركة كمين . وقعت فى الفخ الذى صنعه لها قومها وباعها الذين أسروها إلى الإنجليز بعشرة آلاف جنيه من الذهب ..

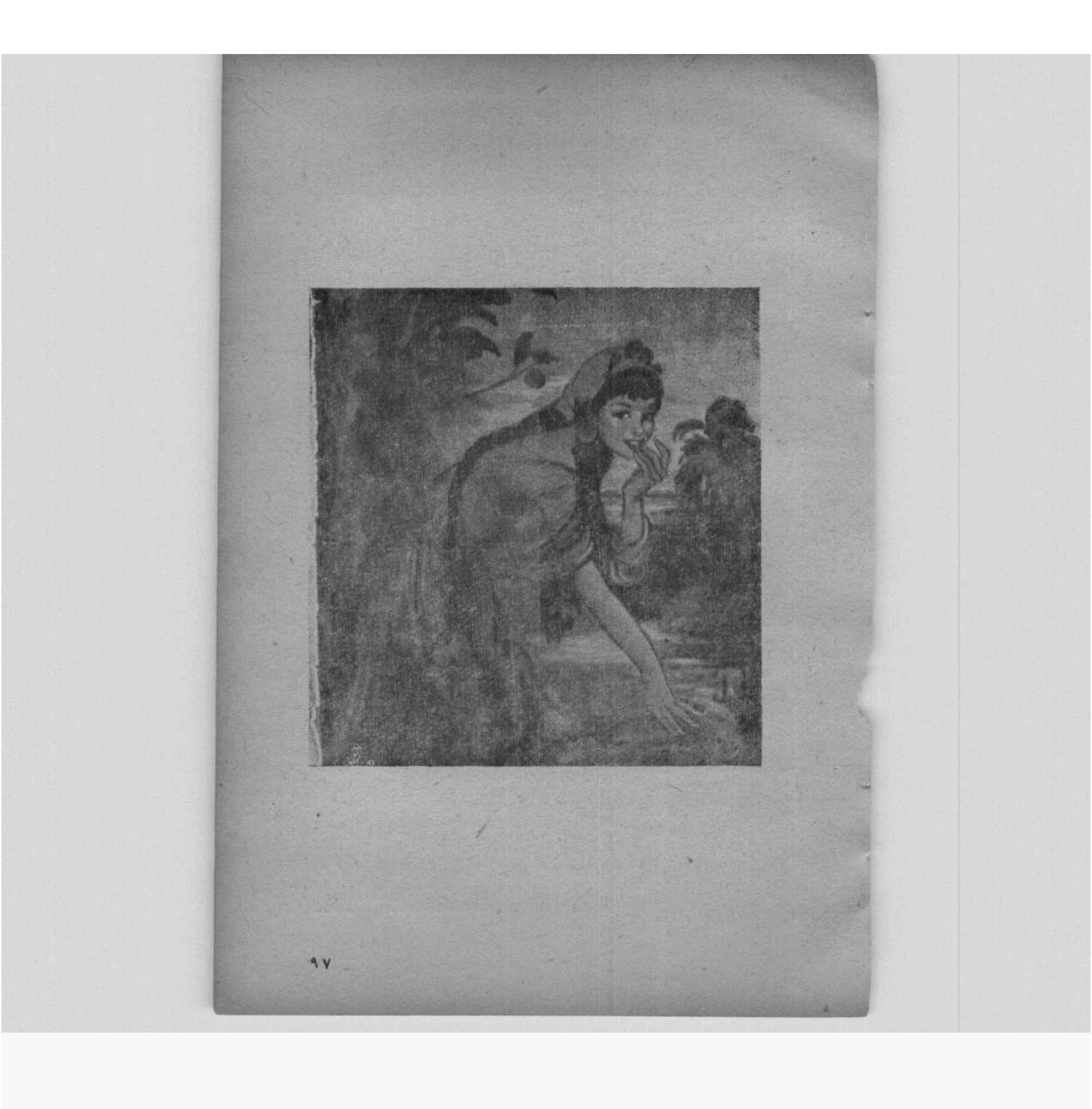
وأسلمها الإنجليز إلى محاكم التفتيش ..

وحوكمت كأسيره وزنديقه ووصفت بعداوتها للكنيسة .

وقال رجال الكنيسة إنها إجترأت على أن تدعى بأنها تخاطب الملائكة بالطريق المباشر وهى بذلك تكون قد انتهكت حرفة الكهنوت . وإن رؤى جان دارك تأتيها من الشيطان فهى خائنة لرسالة السماء .

وقالت لقضاتها إنها مبعوثة الله ولاشـــأن لها هناك . وطلبت منهم أن يبعثوا بها إلى خالقها ..

وظلت أربع شهور كاملة تحاكم أمام أكثر من ستين قاضيـــا .



وقد رموها بكلمات التعنيف والتحقير . وحكم عليها قضاتها بالموت حرقا وبعد خمسمائة سنه أعترف بقداستها .

تروانى

أما تروانى فقد رؤيت فجأة وهى تندفع إلى ثكنة من ثكنات الجيش وقدأستولت على طبل من طبوله . وأندفعت تجوب باريس فألتفت حولها النساء ومضت فى هذه المظاهرة إلى دار البلديه ، وفى كل خطوة يزيد عددها . ثم وقفت أمام البلديه وأخذت النساء يقذفن الحرس الوطنى بالحجارة .. حتى أنسحب .

ثم أقتحمت جموعهن دار البلديه وأستولت على ماوقع فى أيديهن من بنادق وسيوف ورماح ..

وزحفت جموع النساء إلى فرساى فى ثمانية الآف وفى مقدمتهن الثائرة تروانى فى سترتها الحمراء وقبعتها الجوخ ذات الريش وأنضم إليها ثمانمائه من الرجال المسلحين ..

واندفعت هذه الجموع إلى قصر فرساى حيث حاصرته ونفذن من الأبواب الخارجية إلى الساحة فالأبواب الداخلية وارغمت تروانى الملك على العودة إلى باريس .

واستغرقت الرحلة ست ساعات من فرساى إلى باريس وتروانى تلوح بسيفها للجماهير فى حركة حماسية

بين الحب والانتقـــام

سالومى

وهذه قصة المرأة التى قتلت النبى يوحنا المعمدان وانتقمت منه لأنه دعا إلى الخير وحارب الإثم والشهوات ، وكان يوحنا قد بلغ مكانة كبرى فى نظر سكان وادى الأردن لزهده وتقشفه وإيمانه بالله ..

هناك على أطراف الجبال كان يعيش ليأكل الجراد وعسل البر ويلبس وبر الجمل .. ويدعو الناس إلى الله ويعمدهم على شاطىء نهر الأردن . ويأمرهم بأن ينزلوا النهر ليغسلوا خطاياهم .

وكان هيردوس قد حالف ناموس اليهود فتزوج زوجة أخيه ومضى يوحنا يعلن أنه رجل فاسق ،ويذيع على الشعب خطيئة ملكهم ويحرض الجماهير عليه .

وانزعجت زوجته هيروديا منذ انتشار هذه الدعوى من النبى المسموع الكلمة لدى الشعب فطلبت إلى زوجها التخلص منه .. ولكن هيردوس تخوف عاقبة ذلك إذا كان يوحنا موضع إكبار الناس جميعاً وتقديسهم .

وجاءت الفرصة على مائدة الشراب فقد حدث ذات مساء أن هىء مجلس الشراب وقد بدا لهيردوس أن يتزلف إلى ابنة زوجته سالومه التى كان معجبا بها .. وقد وقفت ترقص وتتلوى وتبـــدى محاسنها فى إغراء وغواية .

فلما طرب هيرودس من رقص سالومه وكانت الخمر قد بلغت به حداً كبيراً نهض يسألها أن تطلب أعز شيء لديها فهو يحققه فى الحال ، وكانت الأم قد فطنت إلى عواطف زوجها تجاه ابنتها فانتهزت الفرصة وأوصت ابنتها أن تطلب رأس يوحنا المعمدان .

وقالت له الفتاة وهى تتطلع إليه فى نظرات ملتهبة : « أنها تريد رأس يوحنا » . وبهت الرجل الغارق فى الخمر .. ولكنه أومأ برأسه علامة القبول .

وخشيت هيروديا أن يرجع فى الصباح عن رأيه بعد أن يفيق فأمرت لحظتها الشرطة بأن ينفذوا أمر الملك .

وبعد ساعة واحدة . كان رأس يوحنا يقدم لسالومه وأمها فى طبق ذهبى وانتفض هيردوس حينما رآه .. وانسحب فى الوقت الذى كانت سالومى تكرر رقصتها فرحة بالانتقام من القديس .

بين الحب والخـــداع

دليـله

ودليلة هى الأخرى من نساء الشرق اللاتى يحيط الغموض بعواطفهن لقد باعت حبيبها لليهود تلقاء المال ، ومكنتهم منه ، وكشفت سره .. دليلة الفلسطينية التى خدعت شمشون الجبار خصم اليهود فى فلسطين .

وكان شمشون قد أزعج اليهود ونازلهم وفتك بهم وبسط سلطانه عليهم ، وفى أكثر من معركة انتصر عليهم ، وأحرق زرعهم ، وهو الذى حاصره أعدائه مرة فتناول فك حمار وقتل به ألف رجل .. ولم يجد اليهود وسيلة إليه إلا عن طريق زوجته ، عن طريق دليـلة الفتاة الفلسطينية التى تزوجها وكانت دليلة فتاة بارعة الجمال حلوة الابتسام أحبها شمشون بكل ما فيه من قوة ووهبها ماله وحياته ..

ومن مأمنها أوتى الحذر ، فقد اتصل بها اليهود ، واتفقوا معها على أن تخادعه حتى تعرف مصدر قوته ودفعوا إليها ألفا من الفضة ووعدوا بألف أخرى ، ووعدت دليلة ووفت بما وعدت فى مكر وخداع ولؤم بشع لا يقوى عليه إلا أمثالها .

واستعانت دليلة على خداع شمشون بكل ماوهب الله المرأة من دهاء ودلال ، فجعلت تسرف فى مداعبته وتختار الوقت الذى يكون فيه أصفى ما يكون حباً ووداً ، فتسأله مستفهمة عن سر قوته الخـارقة .. وكان يراوغها ويكذب عليها ويخادعها ..

ولكنها لم تيأس فقد ظلت تضيق الخناق عليه و تتخذ ألف حيلة وألف أسلوب فى الإغراء والرجل هو الرجل عبد لرغباته ولذاته .

وأخيراً وبعد أن أعطته العهود والمواثيق على أن تكتم سره أطلعها على سره .

قال لها إن رأسه لم يعله موسى لأنه ناسك لله من بطن أمه .. فإن حلق رأسه فارقته قوته وضعف وصار كواحد من الناس .

وكان هذا هو السر الرهيب .

وتصف التوراة ماحدث بعد ذلك « .. ورأت دليلة أنه قد كاشفها بكل ما فى قلبه فأرسلت ودعت أقطاب الفلسطينيين وقالت: «اصعدوا فإنه كاشفنى بكل مافى قلبه» فصعدوا إليها والفضه بأيديهم فأضجعته على ركبتها ودعت رجلا لحلق خصل رأسه السبع وطفقت تغنيه وقد فارقته قوته وقالت له: «لقد دهمك الفلسطينيون يا شمشون» فاستيقظ من نومه وقال : «أخرج كما كنت أصنع كل مرة».وانتفض وهو لايعلم أن الرب قدفارقه فقبض عليه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به إلى غزة وشدوه بسلسلتين من نحاس وكان يطحن فى السجن » .

وبقية القصة معروف . فقد نبت شعر رأسه من جديد . وبينما كان الفلسطينيون يحتفلون بعيد ربهم وقد ربطوا الجبار اليهودى إلى عمودين وسط الهيكل إذا به يصيح صيحته القوية التى ذهبت مثلا : « علىَّ وعلى أعدائى يارب » .

وقبض على عمودى الهيكل واتكأ عليهما فسقط الهيكل على من فيه ومات شمشون بعد أن قتلهم جميعا ، وكان الذين قتلهم فى موته أكثر من الذين قتلهم فى حياته ..

بنيلوب

كان أوليس بطل الأوديسا وزوج بنيلوب قد ذهب إلى حرب طرواده فلما انتهت المعركة وأراد العودة عبثت به وبأسطوله (بوزيدون) آلهة البحر فضل الطريق وظل ينتقل من شاطىء إلى شاطىء ومن بحر إلى بحر حتى أمضى عشرون عاماً غائباً .

ومضت بنيلوب تنتظر البطل المحارب والزوج المحب . فلما طال المدى أخذت اللوعة تنفذ إلى قلبها ومضت الحسره تملأ نفسها .

لقد أحبت زوجها وأخلصت له . وذهبت تنتظره صابرة . تعلل النفس مشرق كل شمس بعودته . فإذا مضى اليوم وغربت الشمس عادت من الشاطىء . مؤملة فى مطلع صباح الغد .

وكانت صوت أوليس ينبعث إلى نفسها قوياً دافعاً . وكانت تحس أنه حى . وأنه يناديها من وراء ذلك الحجاب الكثيف . غير أن خصوم زوجها لم يدعوا أمرها يسير إلى غايته وفق ماتريد . كانوا قد أحتلوا القصر وعبثوا بما فيه من أثاث ورياش . وطالبوا بنيلوب أن تختار منهم رجلا يكون لها زوجا . وألحوا على بنيلوب وقاومت رغبتهم . ماوسعتها المقاومة . فلما لم تستطع راوغت وأصطنعت الحيلة . فأذاعت أنها ستختار من بينهم زوجا إذا فرغت من نسج قميص كانت قد بدأت فيه .

وقبل الزعماء شروطها . وظلوا ينتظرون انتهاءها من نسج القميص. وطال الانتظار !

وكانت بنيلوب تنقض غزلها فى المساء وتستأنفه فى الصباح. ثم تعاود النقض إذا جن الليل وظلت على ذلك أياما وشهوراً حتى ضاق بها الخصوم وأتهموها بالغلو فى الوفاء وحرضوها باسم الموت على أن تختار منهم زوجا.

وبينا تواصل بنيلوب خطتها. إذ تقدم منها شيخ رث مكتهل . يطلب إيواءه وإطعامه . ولم يعرف حقيقة الرجل إلا مربيته . التى عاهدته على كتمان أمره. أنه هو (أوليس)زوج بنيلوب الذى وصل إلى جزيرته متخفياً بعد أن أمرته الآلهة أن يتنكر ليحتال فى طرد الغاصبين والإنتقام منهم.

وظلت بنيلوب لا تعرفه .

غير أن الخصوم أكتشفوا احيالتها .وعلموا أنها تنقض غزلها كل ليلة .. فأصروا على أن يكون صباح الغد موعداً حاسماً فى اختيار أحدهم زوجا لها.

وخرجت كعادتها فى الأصيل إلى شاطىء البحر ترقب عودة «أوليس» وتبعها الشيخ يسألها عن هدفها . واتصل بينهما الحديث فعرف أنها ماتزال تضمر له الود والحب ، فيصح لها أن تعلن إلى الخصوم فى صباح الغد أنها ستختار من بينهم من يستطيع أن يشد قوس « أوليس » ..

وفى الصباح أعلنت « بنيلوب » فى الزعماء أن من شد قوس أوليس ورمى عنها فهو زوجها غير أن قوس أوليس لايشده إلاصاحبه . ولذلك فقد أخفقوا واحداً إثر الآخر وتقدم الشيخ الفانى إلى القوس فشدها ورمى عنها وأنتقم من خصومه ثم أعلن عن حقيقته أنه « أوليس » قد عاد .

سافو

بين الحب والتضحية

« لكى أحيى المرمر الفحور بجسمك ياسافو »

« قد وهبت كل الدم الذى يجرى فى عروق »

كان يقرأ هـذا الشعر الرائع المفعم بالعاطفة الذى ضمنه الشـــاعر لاجورنرى ديوانه « الحب ويتمنى أن يحب . أنه لا يعرف شيئاً عن هذه العواطف التى تعيش فيها باريس فقـد جاءها من الريف يدرس العلوم السياسية وهو منصرف إلى علومه لولا أن دعى فى هذه الليلة إلى تلك الحفلة التنكرية التى أقامها الفنان الثرى ولكنها هى اكتشفته بخبرتها فى معرفة الرجال ، فرمت شباكها حوله ،كان فى الحادية والعشرين من سنه عندما استولت عليه هذه الفتاة التى عرفت الرجال طويلا حين أحست بسذاجته وريفيتـه وأحبت فيه البساطة بعـد أن أجهدها منطق الفلاسفة وشعر الشعراء وقالت له :« سواء أردت أو لم ترد فسأقهرك على حبى ».

لقد أخذته هذه الساحرة فلفته فى اللذات العاصفة وأرته هذه الأجواء التى لا تعرفها إلا الغانيات ، فقدكان معزولا لا يعرف الناس ولم يذق الحب وقد أخذت تداعبه وتعجب بلون عينيه وهى وراء قناعها فما أن انتهت الحفلة الصاخبة حتى مضت معه إلى مسكنه فأمضت معه أياماً ثم

تركته مذهولا يحاول أن يعود إلى دراسته فقد كان الامتحان على الأبواب دون جدوى .

ومضى يكب على دروسه وينسى تلك النزوة الطارئة . . ولكنه لا يلبث أن يراها تدخل وهو خلف مصباحه ومعه كتبه يقرأ ووعدت أن لا تضايقه وهكذا . . ظلت تعاوده فى منزله ثم تتركه وتمضى . . وبدأ يعرف عذاب الانتظار والوجد والشوق .

كانت من أولئك اللواتى يعرفن كل الناس ، من رائدات البارات والملاعب ، ولكنها اليوم تحب بقوة هذا الشاب الريفى الساذج وتبذل له كل شيء .

ولما ذهب إلى شقتها أكلت الغيرة قلبه ، فقد رأى اللوحات الزيتية ، وتمثال المرمر للمثال كودال ، والأثاث المترف .

وبات عندها ، وفى الصباح سمع ذلك الحوار بين الرجل الغنى العجوز الذى كان له فضل المال والشهرة والترف الذى تعيش فيه . وضاق جان بهذا وتركها ومضى . . ولم يعد .

وذهبت هى تبحث عنه فى كل مكان وتنتظره أمام المقهى والمطعم والمسكن . . دون جدوى ولكن لم يلبث بعد أن أدى الامتحان أن وقع فريسة المرض ولم يقف بجواره غيرها « فانى » لم تكن تنام طوال الليل ، ساهرة عليه .

فلما أفاق قليلا واسترد بعض كيانه طلب إليها أن تعود إلى بيتها لترى أمره بعد هذه الأيام الطويلة التى قضتها إلى جواره .

ولكن لم يكن هناك بيت ، فقد باعت الأثاث ، وفضت العقد ، ولم

يعد لها شيء سوى ذلك الثوب الذى عليها . . من أين لها أن تنفق وقد خاصمت فيه ذلك الرجل الثرى .

وعاشت معه فى شقته . وبدأت تضع فيها روحها وفنها ، وكان قد توظف فى وزارة الخارجية .

ولكن ، هل يمكن لهذا الريفى المحب الغيور أن يصمد أمام ماضى فانى الطويل وقصصه وأحداثه وهو يسمعها فى كل مكان ، وعلى أفواه الناس.

لقد عرف إن فانى هى سافو . وأنها هى التى أوحت إلى كودال تمثاله المرمرى. وأنها التى أوحت إلى لاجرونوى ديوانه الرائع «كتاب الحب» الذى كان يحب شعره ويتلوه . وكانت مصدر الإلهام لعشرات من الفنانين والمثالين والمصورين والشعراء .

وعلم أنها سجنت ستة شهور فى سان لازار على ذمة التحقيق حين قبض على خليلها فلامان الذى حكم عليه بالسجن عشر سنوات . فقد كان رجلا حفاراً فقيراً جن بها جنونا وخشى أن تهجره لفقره فراح يزيف الأوراق المالية من أجلها حتى كشف أمره وسيق إلى السجن وكانت تقول له وهو فى طريقه إلى القيد : لا تسأم ياحبيبى فسوف تعود أيام الهناء .

فلما عرفت جان تبدلت نفسية سافو تبدلا كبيراً فبعد أن كانت لا تعرف العاشق إلا أسبوعا أو شهراً استسلمت لجان الفقير وهامت به .

ولكن نفس جان كانت تتقطع حسرة ويحس بالنار تأكل قلبه كلما سمع قصص ماضيها المثيرة فقد كان يغار من الناس الذين عرفوها ، ثم لا يلبث أن يعاوده حبه فيقول إنه غير مسئول عن الماضى الذى لم يكن يعرفها فيه .

وأمام حسابه العسير نزلت له عن رسائل الغرام التي كتبها لها عشاقها والتي كان قد قرأ طائفة منها من قبل فمضى يحرقها ويقطعها في حمـــاس شديد . ودفعته غيرته إلى أن يخرج بها من باريس ورضيت هي بقضاء، فيهـــا .

ورغب أهله أن يزوجوه وأراد أن ينفصل عنها ولكنها تمسكت به في عنف وكانت تقول له إنني أعرف إن فراقنا محتوم ولكني أحبك . وليس لي في الدنيا سواك لا تفعل . لا تتركني . ماذا تريدني أن أصبح بدونك . أبق وتمتع بالحب .

هل تزعم أن مثل حبي إياك يمكن أن يوهب مرتين في الحياة . إن أمامك الوقت للزواج متسع وأنت شاب . أما أنا فلا ألبث أن أنتهي وعند ذلك طبعا يحين الفراق .

وكان يسألها عن عشيقها مزيف النقود فكانت تقول له : « إنني لم أعد أحبه لأنني أحبك ولكن يستحيل علي أن أحتقر الرجل الذي عبدني إلى حد الهوس والإجرام » .

ومضى جان يشرب كئوس الحب بألوانه وصوره . حب سافو له تهب فيه كل نفسها تحت ضغط إحساسها بغد مجهول وفراق محتوم وسن يرتفع واتفقا أن يذهبا إلى بيرو في أمريكا حيث يعمل هناك . وسبقها إلى مارسيليا لتأتي فتبحر معه . وحجز الأماكن في الباخرة . وجاءت ليلة السفر وظل يتقلب في فراشه حتى الصباح . صباح اليوم الجميل الذي ستحضر فيه فاني ويسافران معا . ولكنه فوجىء بخطاب منها كان هو فصل الخطاب .

كلا فلست راحلة معك . إنها حماقة أكبر كثيراً مما تحملها قواى .. فهى للشباب وليست لى .

ها هى ذى قد انقضت خمس سنوات منذ عرفتك كانت إشارة واحدة منك تحملنى على أن أقطع الدنيا من أقصاها إلى أقصاها . لأنك لا تنكر إننى أحببتك بكل جوارحى . أحببتك حبا فوق ما أحتمل .

إن هذه الرحلة البعيدة تخيفنى فإنى أكره التنقل ولن تكون قد بلغت الثلاثين عندما أصبح أنا عجوزاً شمطاء . كان على أن أقول لك ذلك من قبل . ولكننى لم أجد فى نفسى شجاعة إذ رأيتك قد إعتزمت هذا الأمر وصممت عليه .

إن الأمر بالنسبة لك ولكل الناس قد انقضى وقلبى قد مات .

لقد تهدمت الآن وأصبحت فى حاجة بدورى أن أحب وأن أدلل . وذلك الرجل سيكون تحت قدمى لا يرى قطفى وجهى تجعيدة ولا فى شعرى شيئاً وإذا تزوجنى كما ينوى فإنه يرى ذلك نعمة أنعم بها عليه . فاذهب أنت ولا ترتكب حماقة فقد اتخذت حيطتى فلن تعرف طريقى .

فى مقهى صغير بالمحطة أكتب إليك وأرى خلال الأشجار البيت الصغير الذى قضينا فيه أسعد وأقسى الأوقات تتأرجح على بابه يافطة للإيجار فى إنتظار نزلاء جدد .؟

جيوكندا

الصراع بين الزوجة والعشيقة

كانت تعمل عنده فى الاستديو « نموذجا» فأحبها . وبدأ فى نفسه صراع شديد بين زوجته سيلفيا . ونموذجه « جيوكندا » .

ماذا يكون نهايه هذا الصراع فى طبيعة الفنان ، هل يستطيع الفنان أن يعيش من غير حب كبير يوحى إليه ، يصوره مرمراً ويبعث فيه الروح.

وتطور الصراع فى نفس المثال « لوشيو » إلى موقف خطير وقرار أشد خطورة فقد أطلق على نفسه الرصاص محاولا الانتحار .. ولكنه لم يمت ، وقضى أياما قاسـية طريح الفراش وزوجته تقف إلى جواره تسهر على تمريضه .. وفى قلبها قلق ، ترى هل عاد لها فى النهاية .

أما جيوكندا فهى هناك فى الانتظار ، بجوار الاستديو ، لاتمام التمثال الرائع الذى بدأه لوشيو والتى تعمل هى نموذجا له .

أما زوجته فتعرف أنه لن يتخلى عن جيوكندا وأنه عائد إلى تمثله بعد أن يشفى ليتم عمله ولكن لوشيو وهو تحت ضغط عاطفة وفاء زوجته وجهدها أثناء مرضه يحاول أن ينسى جيوكندا ، ولكنه لايلبث أن يتلقى خطابا منها ، خطابا حاراً تقول فيــه أنها هناك تحت قدمى التمثال تجلس وحيدة فى انتظاره .

أنها تقول له . من الجائز أنه لايحبها ولكنها تريده ، وهى مسلحة

بسحر لايملك أمامه الإحتفاظ بإرادته ، وهى واثقة من أنه سيسلم نفسه أخيراً .

وما أن تعاوده الصحة ويحس بأنه أصبح قادراً على العمل حتى يحس بحاجته إليها أنها : وحيه ، إلهامه ، غذاء فنه وروحه .

ويدهش حين يعرف أنها أمضت أيام مرضه تبلل غطاء التمثال بالماء .. وبدمعها ودخل مرة أخرى فى الصراع الذى حاول أن يضع حداً له .. دون جدى .

ماذا يعمل بين تلك الحفيظة على حياته ، وهذه الحفيظة على فنه .

أنه لايدرى ماذا يفعل ، أنه شقى يتعذب ، أنه منقاد إلى جيوكندا بقوة لاتقاوم !

وتذهب الزوجة إلى الأستديو حيث تقـــابل غريمتها : جيوكندا ويدور بينهما هذا الحوار :

جيوكندا : أنى وهبته أحلامه وسعادته وحريته وفنه ، أننى حياته ، أننى ملهمته ، أنه يعلم أننى هنا وأننى انتظره .

الزوجة : أنه قد أرسلنى إليك لأقول لك أنه قد نسى كل شىء عن الماضى

جيوكندا : إذن قولى له أنه سيفقد براعته وشبابه ونوره قولى له أننى أحمل معى كل ما كان يعتز به فى نفسه وفى فنه . وإننى سأحطم هذا التمثال . كما فعل هو بحوى .

ويدور الصراع بالأيدى . وتضطر سيلفنا إلى أن تصارحها بأن كل ماقالته لها غير صحيح وبينما هى تحاول أن تنقذ التمثال تتحطم يدها تحته وينجو هو . أنها قد وهبت يدها لزوجها ..

ولكن هذا لم يشفع لها عند زوجها . أن حب جيوكندا قد سيطر على نفسه . فهجرها وعاشت تذكر حباً ضحت فيه بأعز ماتملك ...

مختار

بين الروح والجمال

المثال المصرى الخالد الذكر مختار . لقد ذهب إلى باريس ليدرس الفن وكان طبيعياً أن يجد الحب فى مدينة النور . ولكن كيف وجده ؟ وعلى أى صورة من صور الصراع بين الروح والجمال .

« .. كنت أسكن بولفار رسباى بحى مونبارناس . وأتناول من وقت لآخر طعام الغـذاء فى شارع « دنفيرروشروه » عند عائلة متوسطة الحال . مكونة من سيدة كبيرة لها بنت فى العشرين وأخ وابنة أخ فى الثانية والعشرين . وكانت بنتها جميلة المحيا حقا . أما بنت أخيها فليست من الجمال على شىء . ولكنها كانت مع ذلك تنتصر فى كل مجال بما حباها الله به من ذكاء وخفة روح . فقد كانت ممتلئة حيوية وفطنة ..

وجعلت ألاحظهما وأدرسهما كفنان . وكثيراً ماوجدت جمال النفس ينتصر على جمال الجسم . وهذا مما يثبت بداهه . مايجب على الفنان عندما يريد تصوير إنسان : أن يتغلغل فى قرارة نفس الشخص الذى عليه تصويره أو تمثيله ، فمن القواعد المعروفة والتى كانت تدرس لنا أن الشبه وحده لايكفى للدلالة بل هى الروح والخلق التى يجب نزعها وإخراجها على وجه الشخص .

أردت أن أستفيد من تلك النظرية وأرى ما يمكن أن يعطيه الفن بين

هذين المتناقضين وما يخرجه منهما ، أعنى من الجمال الجسدى والجمال الروحى .

فلما شرعت فى عمل تمثال لكل منهما جاء عاملان فحالا دون الوصول إلى النتيجة التى كنت أنشدها ، وربما كانت الخيرة فيما وقع .. وانا الآن وقد فاتت نزعة الشباب ، أدرك ذلك لأننى كنت متحمساً فعلا للنتيجة . ولكن ترى هل كان تكوينى يومئذ يمكننى فعلا من الوصول إليها وهى من المشاكل العويصة فى الفن ؟

أما العامل الأول فهو أننى كنت قد بدأت أميل إلى التى كانت غير جميلة ، فجعلنى هذا الميل أراها أجمل مما هى ، وكان العامل الثانى إعلان الحرب الكبرى (الأولى) فنزحت العائلة عن باريس إلى مسقط رأسها فى الأقاليم .

تورجنيف

كان تورجنيف مثاليا لا يعترف بالحب على أنه التمتع الحسى ، نما كان يطمع فى المعنى الروحى وهو يخشى الرغبـــة الحسية ويحذرها ويدعو إلى التحرر منها .

فهو يحب المرأة روحاً لا جسما ، وإلهاما لا متعة . وقد كان قوى البدن سليم الأعصاب أستهدف أن يقاوم غرائزه ويتسامى بميوله وأهوائه خشية السقوط فى اللذات العاصفة .

وكان يرى فى المرأة المادة الفنية لأدبه فإذا جلس إلى سيده لا ينفك ينظر إلى عينها أو فمها أو صدرها ليصل إلى مفتاح جمالهـــا ثم يودع ملاحظاته أوراقه كى يسوقها يوما فى عرض قصة من قصصه .

ويقول أنه ينبغى على الأديب ألا يقيد نفسه بعاطفة واحدة إذ أنها تتحكم فيه وتحد من غفلة روحه .

وعندما التقى بمدام فيادور وأحبها حباً صوفياً مجرداً ظل يتردد على صالونها فيجلس صامتاً ، ويتأملها خلسة ، ويكتفى منها بأن يراها ، وقد أعجبه فيها أنها لاتوزع قلبها بين عاطفتين ، وأحست هى ما يكنه لها من حب فكانت تلطف عواطفه وتحاول أن تنقله من الهوى إلى الصداقة .

وعذب الحب تورجنيف ولم يستطع أن يقاوم طويلا فصارحها بكل شيء ولكنها ردته عن رغبته وقالت له أنها لن تفرط فى رابطتها المقدسة ..

وقد وصف إحدى حبيباته فى سطور من مذكراته فقال « عندما لمحتها لأول مرة جمدت فى مكانى واستولى على شبه ذهول ، خيل إلى أن يد الله قد امتدت فجأة فنزعت القناع الذى كان يحجب عنى وجه العالم ، فرأيت كل شيء فى حلة جديدة . ورأيتنى أطالع جمال الأشخاص والأشياء فى ظما جديد .

كنت كطفل يستكشف الحياة فى خطوه . شعرت بأن الحب أطلقنى من ربقة العقل والمنطق ، وأدمجنى فى سر هذه الدنيا وضاعف حريتى فى التمتع بكل ما تقع عليه عيناى . والغريب أنى قد أحببت العالم لأنها فيه وشعرت بفتنة النساء لأنها منهن ، وبدلا من أن يختم جمالها على بصرى أماط لى اللثام عن كل نور وكل جمال .

أنا الآن فقط إنسان حر ، وإذا كنت أحرص على هذه الحرية التى أغدقتها على ، حرية الاستمتاع التأملى بما يحيط به من روائع دون ما اكتراث للشقاء الذى تغمرنى به الحياة ، فأنا قوى على الدهر بها وما دمت أراها فأنا أرى فيها قبساً من نور الله » .

المرأة التى لا تستسلم

لويز كوليه

وهذه معبودة الكاتب الفرنسى جوستاف فولبير ، معبودته الشاعرة التى أهدته إلى حل عقدة نفسية فقد دفعته بأنوثتها إلى دعم أسس فكرته الجديدة عن الواقعية فى الفن والحب .

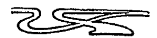
عند ما أحبها امتلأ عقله بالحيرة واشتعل قلبه بنار الغيرة ، وكتبت إليه تقول «كيف يمكنك أن توفق بين أفكارك العالميـــة ومبادئك الحرة ، وبين هـــذه الغيرة الطائشة الحمقاء التى تلاحقنى بها وتحاول أن توقعها على كحكم الإعدام .

أنا لا أفهم الحب على هذه الصورة ولا أتصور السعادة فى صحبة رجل إلا إذا كان صدرى عامراً بالكرامة ونفسى ذاخرة قبل كل شىء بنعمة الحرية ، فالحرية عندى فوق الحب والكبرياء فوق السعادة واحترام النفس فوق كل متعة .

ولقد عرفتنى وخـــبرتنى ونفذت بعقلك الثاقب إلى أعماق نفسى فكيف تريد اليوم أن تستعبدنى ، وكيف يطاوعك ضميرك على أن تجعل منى ـــ أنا المرأة التى تزعم أنك تحبها ـــ مخلوقاً وضيعاً حقيراً لا شخصية لها ولا كرامة ولا إحساس .

أنك بغيرتك الطائشة تنزل عن عرشك ، وتحط من قدرك . وتنقص من قوتك ، وتجرد نفسك من كبرياء الرجوله التى من أجلها أحببتك . والحق أنك بهذه الغيرة تعلمنى الخبث وتدفعنى إلى الكذب وتسوقنى إلى الدهاء وتزين لى أن أخدعك انتقاما منك وجزاء لك على عدم الثقة بى .

هل يرضيك أن تذلنى وتمتهننى أنا التى كنت أصبو إلى الحرية على يدك وإلى التوفيق فى ظلك وإلى السمو الفكرى استمده من نبوغك . . ألا أنك إن قتلتنى قتلت نفسك وإن فقدتنى فقدت عقلك . »



لوسالوميه و نيتشه

لوسالوميه من هـــذا النوع الذى لا يسلم . أحبها نيتشه فيلسوف إرادة القوة . وكأنما أراد القدر أن يسخر منه ومن فلسفته ، فقد كان يقول : « إن من مصلحة العالم أن يعيش الأقوياء ويسودوا » . وهو يرى فى المسيحية مجموعة من أخلاق الضعفاء كالرحمة والحنان والعطف والطاعة ، ويقول هذه كلها فضائل إذا سادت عملت على بقاء العصافير دون الصقور .

وكان يقول إن الرحمة ضرب من الشلل لأن معناها أن نبذل مشاعرنا لمخلوقات لايرجى لها نفع . وهى فى ذات الوقت قسوة وغلظة .

وكان يعتقد أن المرأة إنسان ثانوى ويقول إن المرأة راحة الجندى بعـــد المعركة وقدشغف بالعزلة ولكنه أحب الفتاة لوسالوميه فتحول داعية الكبرياء والجرأة إلى إنسان ضعيف . كان يتذلل لها ويجرى ورائها ويستعطفها . بل قيل أنه كان يرتجف لمقدمها ويضطرب لغيابها .

وتحول من مذهبه العلمى الجاف إلى نظم الشعر . وجرب الجزع واللهفة وكان بهذه التجربة أول من حطم مذهبه العلمى . وكان وهو عدو الرحمة طالب رحمة . وداعية القوة أول ساخر من مذهبه .

أما سالوميه فقد كانت تقرأ له كتبه وتخالفه فى أسلوبه فهى لاتحب العزلة ولا الصمت وتحتفى بالمجتمعات والحركة والاقتحام .

ولما أمتد بهما الصراع كتبت له هذه الرسالة :

لقد أعجبت بك مع شيء من العطف عليك . وأوشكت أن أخضع لك واستسلم . ولكنى تنبهت قبل فوات الوقت . أتعلم لماذا رفضت الزواج منك ، لأن عقيدة القوة التى تدعو إليها تقلقنى وتخيفنى . أنا امرأة وكل امرأة تحب القوة وتنشدها . والقوة فى ذاتها شيء عظيم . ولكنها شيء ناقص . القوة تخلق الفكر وتخلق الحضارة وتنظم المجتمع . ولكن الحرص على الفكر وعلى الحضارة وعلى المجتمع لا يمكن أن يتم فى عرفى بدون محبة .

فالمثل الأعلى فى نظرى هو اقتران القوة بالرحمة . أى اقتران فضائل الإرادة والعمل والسيطرة والاستعلاء التى يمتاز بها الرجل المتفوق بفضائل الطيبة والرحمة والحنان والتضحية الكامنة فى نفس المرأة المتفوقة ومن مجموع هذه الفضائل تتكون الحقيقة الإنسانية الكبرى .

لقد كنت أعتقد عندما عرفتك إنك إذا كنت تمثل القوة فأنا أمثل الحب . وإن فى وسعى بفضائل المحبة الكامنة فى نفسى أن اكمل النقص الملحوظ فى قوتك بحيث نحقق معا تلك الوحدة الإنسانية المبتغاة .

ولكنى أدركت أنك تضع القوة فوق كل شيء وتؤمن بأن القوة وحدها قادرة على كل شيء . ولهذا رفضت الزواج منك وأصبحت أثق أنه من المستحيل علينا أن نتفاهم يوما ونتحاب . فامض فى طريقك فأنا لست لك وأنت لست لى ولا لغيرى . بل للفكر المجرد الذى تعتقد أن فى مقدورك أن تفرضه عنوة واقتداراً على حقائق الحياة [1]

---

(١) بتصرف عن ترجمة لابراهيم المصرى

المرأة فى حريم السلاطين

يعد حريم السلاطين من أروع الصور التى تروى عن المرأة لما كان يضمه من الأسرار العجيبة التى ظلت خفية وقتاً طويلا . خلال أكثر من مائتى عام حتى أتيح لها أن تعرف بعد إلغاء الخلافة فى تركيا .

وكان قصر « سراجيلو » المطل على خليج البسفور من أعظم القصور التى شهدت هذه المآسى المروعة لحياة المرأة . فقد كان مستعمرة للنساء خاضعة للخليفة العثمانى فى حراسة من الأغوات الطواشى .

وهو عالم مستقل لاصلة له بالحياة الخارجية تديره إمرأة لارجل . وهو أشبـــه بالأديرة وقد عاش فيه بين ثلثمائة وألف ومائتى امرأة فى وقت من الأوقات .

وكان لهاته النسوة قصص . قصص مروعة دامية . فـكل إمرأة من مكان . بعضها يشترى من أسواق الرقيـق ويقدم إلى الخليفة وبعضها الآخر يهدى من قصور ملوك أوربا وآسيـــا . فى مظهره علامة على الود ، وفى مخبره تجسس من نوع عجيب .

فقد كانت الدول تبعث ببناتها ذات الجمال لإغراء السلاطين وتنتهز فرصة الحب الذى قد يقع بينهم وبين الجوارى حتى يكون سبيلا لدس الدسائس فى الخلفـاء . وكثيراً ما كان هذا الحريم هو اليد الأولى التى

تسير دفة الدولة كلها . ويكون لإمرأة فيه من السلطان ما يغرى بسلطان السلطان ذاته .

وقيـــل أن عدد زوجات مراد الثالث بلغ أربعين وخمسمائه من السراري والجواري وأنه رزق مائة وثلاثة من البنين والبنات .

وفى هذا الحريم كيد ودس وصراع بين القديمات والجديدات ، والجميلات وغير الجميلات ، وكل منهن تسعى لتسوىء سمعة الأخرى وحمل السلطان على هجرها .

وكان أقرب حل لمشاكل الحريم القتل بواسطة الخصيان وإلقاء الجثث فى البسفور طعاما للأسماك ، وهناك تنطوى الأسرار دون أن يعرفها غير الذين ذهبوا بها وقد بلغ الضحايا فى مؤامرة من المؤامرات ثلاثمائة خيطت عليهن الأكياس وهن أحياء وألقين فى مياه البسفور وكانت أسواق الرقيق فى آسيا تصبح وتمسى ولا هم لها إلا تخير الرائعات فى الجمال لتقديمهن إلى حريم السلطان وحريم الأمراء ، كانت هذه أنواع عديدة من اليهوديات والصقلبيات والأرمنيات .

وكان حب السلاطين لهؤلاء الغوانى يفعل كل شىء .

وفى قصور الحريم نساء من كل نوع ، من الراقصات المتهتكات اللواتى طفن بيوت الدعارة فى بلادهن ، واللواتى كن محظيات لرجال البلاط فى [illegible]نسا أو روسيا أو اليونان ، فإذا توسمن فيهن المكر والخداع أرسلن إلى يلدز للتجسس على السلطان وحاشيته .

وقد كان لهذا الحريم تقاليده ومظاهره ، هناك الخرافات واستطلاع

الغيب وقراءة الكف والسحر والتنجيم ، وكانت النساء النابغات فى هذه الفنون يجدن إلى قلب السلطان سبيلا .

وفى الحريم كان يهيء الحمام السلطانى المصنوع من المرمر الإيطالى الأبيض والوردى حيث يختلف إليــه الجالسون على عرش آل عثمان ليستحمون بين السرارى والجوارى اللواتى ينشدن ويرقصن عاريات وينثرن الزهور ويمزجن الماء بالمسك والعنبر والعطور .

وكان الأغوات احيـانا يقتلن الجوارى ، وكانت الجوارى تقتلن الأغوات . وكان هناك سوق للدعارة والإثم والصراع الجنسى فى قلب قصر السلطان عجيب غريب .

وكانت الفتاة التى تنال حظوة عنـــد السلطان يطلق عليها « إقبال » وذلك عند ما يصل إليها المنديل الرمزى الذى تبلغ به هذه المرتبة ، ومن هنا تبدأ فى الصعود حتى تكون أشبه بملـكة . . والـكادن رتبة أخرى أعلى من « إقبال » حيث تصبح واحدة من أربع زوجات دائمات . وقد وصلت إلى هذا المنصب « روكسلانا » الجارية الروسـية ، ويكون زمام السيادة فى الحريم فى يد المرأة التى يتربع ابنها على عرش السلطنة .

وقد بلغت السلطانة « فاليدى » من القوة والعظمة ما أثارت به دولا وألقت بالشعب فى حروب دامية .

وقد بلغ الخصيان الذين كانوا يعملون حراساً للنساء أكثر من ثمانمائة من السود .

* * *

ولم تبلغ حيـاة حاكم أو سلطان من الغموض ما بلغته حياة السلطان

عبد الحميد ، فقد أحاط نفسه بجو من السر والسحر . وعاش حياة أشبه بالأساطير والخرافات . فهو من السلاطين القلائل الذين بلغ بهم الشك بالناس عامة وبمن حولهم من رجال البلاط والحاشية حداً كبيراً :

كان عبد الحميد بعيـــداً عن العرش من جهة الترتيب الذى وضعه الخلفاء . وماتت أمه وهو طفل صغير . كان دوره بعد عمه عبد العزيز وأخوه الأكبر مُراد . فلما وصل إلى العرش أخيراً وصل بالخداع والحيلة . فقد استلب الملك استلابا من مراد . وظل يفرض عليه رقابة قاسية متهما إياه بالجنون .

وقد ولى عبد الحميد أمور السلطنة والخلافة فى أشد الأوقات خطراً . فى ذلك العهد الذى بدأت أوربا تفتح عيونها على الشرق وتنظر إلى تركيا دولة الخلافة على أنها أخطر عقـدة فى طريق غزوها للبلاد . فعاش عبد الحميد سـنوات الصراع هذه يواجه الشعب الذى يريد أن يحس بالحرية ويواجه أوربا الزاحفة على الشرق .

فى خلال هذا الصراع والخوف الذى انتظم حياة السلطان الطويلة كيف كان موقفه من المرأة . وماهو أثرها فى حياته ؟ .

لقد بلغ عدد السرارى المجلوبة إلى قصر يلدز ثلاثمائة سرية أكثرهم من الشراكسة وفيهن الرومانيات وكان هؤلاء ملك اليمين لعبـد الحميد .

ولهؤلاء نظام دقيق فى الإعداد والتربية . فقد كن يدربن على ما يرضى السلطان ويسره من حسن الهندام والأحاديث . وكن يحفظن الكثير من الأشعار والقصائد والقصص والموشحات .

فى هذا الجو الذى يطلق عليه « الحريم » وفى هذه الأجنحة المفروشة

بالرياش الفاخرة الغالية الثمن كانت هذه المجموعة الضخمة من النساء يعشن فى انتظار إشارة من السلطان . كانت كل واحدة منهن تمنى نفسها بذلك اليوم الذى تصبح (قادينا) وتكون من ذوات السلطان والتصرف فى بلاط خليفة المسلمين !

* * *

ماتت أم عبد الحميد . وهو صغير . وأحس بالوحدة الموحشة فى القصر المضطرم بالعواصف والخصومات ، وعاش فى الحريم يتسمع إلى الهمس ولايجد ذلك العطف .. غير أنه ماكاد يبلغ الشباب حتى جذبته امرأة عجوز رائعة الجمال هى إحدى نساء السلطان . فأصبح صديقاً لها يشاركها هوايتها المحببة «السحر» . وكانت زوايا القصر وحجراته البعيدة المطلة على البسفور تحوى هذه المرأة الجميلة التى لم يذهب ارتفاع السن بروعتها . وهى تلبس ملابسها الشرقية الثمينة ، وهذا الشاب النحيل الشاحب . الضامر الوجه والأيدى وهما عاكفان على كتب البخت والسحر والفلك . يطالعانها فى لغاتها العربية والفارسية . ولما دان الملك لعبد الحميد . وتخطى من كانوا أمامه . ظلت مدام برتقالى صديقته يرسل إليها بين حين وحين بعض هداياه الغالية .

غير أن عبد الحميد سرعان ما غرق فى متاعب السلطة والخلافة . كان يخاف الناس جميعا . وكان يعيش على التقارير والجواسيس والأوهام فى صورة أحلام ومنامات أقرب الناس إليه وموضع سره : أبو الهدى الصيادى .

وكان هذا يأخذ منه وقته كله . فيصرفه عن جو المرأة . وينسيه هذا

الجيش الجرار الذى يعيش فى الحريم . غير أنه ما يلبث عنـــدما تتأزم الأمور أن يلجأ إلى أقرب الجوارى إليـه ، يحتمى بها . واجدا شعور الطمأنينة فى كنف إمرأة تحبه وتحنو عليه .

كانت كل واحدة منهن تترقب الفرصة لأن تبذل شبابها فى سبيل رسم ابتسامة سعيدة ، على فم هـذا الرجل المعقد الجبين ، الذى يبدو وكأنه يحمل أثقـــال الحياة فوق كتفيه كان ذلك نتيجه العقدة النفسية الخاصة بالشك فى شرعيته وهو طفل . وكان كلما أختار واحدة لفراشه . دون التاريخ بعناية حتى يستطيع أن يراجعه فيما لو أصبحت « أما » .

وقد دفعه شكه فى المرأة إلى صنع تمثال من الشمع على صورته وهو مرتديا ثيابه اليومية منحنيـا على كتاب كأنه يقرأ . وكان يقف مختفيا فى مكان قريب من التمثال . ليرقب جواريه وسراريه وهن يقتربن منه أى من التمثال ، ليعرف ماذا تحدث رؤيتهم له من مشاعر يعبرن عنهـا بالاحترام أو السخرية .

وكثيرا ما كانت هناك واحدة من سراريه تجلس إلى جانبه كل صباح تفتح له الرسائل أو تتناولها منه لتضع عليها خاتمه . وكثيرا ما كانت تحضر اجتماعاته بالسفراء الأجانب من وراء ستار وفى فـترات الضعف النفسى كان يأكل من تجويف يد « إمرأة » من سراريه . وكان يحس بالطمأنينة لهذا المعنى عندما يخشى أن تكون هناك مؤامرة عن طريق الأطباق المسمومة .

ولم يعرف أنه أحب إمرأة بعينها ـــ طوال الأربعين عاما التى قضاها فى سجن قصره ـــ بينما كانت أسواق السرارى تقدم فى يوم محدد من كل

عام . شـــابات يجرى فى عروقهن دم الشباب بينما يترك الحريم نساء أخريات قد أغراهن الـكبر والشعر الأبيض . وكان عبد الحميد يظهر فى الحريم فى أيام غير معروفة وخاصـــة فى الأعياد ويرى كيف تتسابق الشابات النواهد إلى تقبيل أطراف ثوبه أو لمس كتفه .

ولم يتزوج عبد الحميد على وجه التحقيق . ولم تكن له زوجة شرعية معروفة ، كما لم تكن له عشيقة معروفة . إنما كان يثق ببعض سراريه . على صورة قريبة مما يطلب الطفل من الأم عندما يلتى فى أحضانها من الخوف والفزع .

وهو على أسلوبه من الشك والرغبة فى تصديع كل مايخشى من اتحاده عليه . كان يحرك الخلافات الصغيرة ويثير عوامل العداء بين الجوارى حتى لاتقوم فى هذا الوسط الصاخب عوامل الوحدة والائتلاف .

* * *

وقد أورد بعض الـكتاب على لسان الجوارى نشيداً كن يرددنه فى خلواتهن يقول :

« نحن معشر الجوارى نتخذ المتعة والنعمة . ونختال فى برود الوشى والديباج ونأكل من طعام الجنة . لاننفك نتجمل كعرائس البحر فى حمامات من الرخام والمرمر وينضح العطر على أجسامنا . نهارا للزينة . وفى الليل نبيح أجسامنا كزوجات لرجال أترعت قلوبهم طموحا إلى السلطة فليس فيها بقية للصبابة . ماينفع الجسوم إذا تنافرت القلوب » .

وعندما ألغيت الخلافة دالت دولة الحريم فقد أخذ الخليفة المخلوع القليل من عزيزاته المختارات . أما الباقيات فقد سرن فى موكب حزين

اخترقت بهن ٣١ عربة من شوارع الآستانة وأعمارهن تتراوح بين ١٥ و٥٠ سنة. ووفد إلى الآستانة عدد من الشراكسة سكان الجبال ليتسلموا بناتهم . وقد أجلسن ورفعن النقاب عن وجوههن لكى يتعرف عليهن ذووهن .

وأرتمت فتيات فى أحضان أبائهن بعد أن حرمن منهن سنيناً ،وفرحت الفتيات بعد أن عادت إليهن الحرية التى فقدنها منذ سنين . ولكن بعض الأقارب لم يجدن فتياتهن . قتلتهن المؤامرات وأغرقن أحيـــاء فى مياه البسفور أو أخذهن السلطان معه إلى سالونيكا .